أَثَرُ العِتْقِ فِيْ شِعْرِ نصيبِ بْنِ رَبَاحٍ

الدُّكْتُورُ وَلِيدُ تَيمَةَ الْعُبَيد[1]

(١) أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم اللغة العربية، كلية التربية والآداب، جامعة تبوك.

مستخلص الدراسة

يَتَنَاوَلُ هذا الْبَحْثُ أَثَرَ الْعِتْقِ فِي شِعْرِ نُصَيبٍ بْنِ رَبَاحٍ، مَولَى عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ، الشَّاعِرِ النُّوبِيِّ الَّذِي عَاشَ فِي ظِلِّ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ، وَكَانَ رَقِيقاً لِبَعْضِ بَنِي مُحْرِز مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ بِالحِجَازِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَحَرَّرَ فَشَدَّ رِحَالَهُ إلى عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ وَالِي مِصْرَ مِنْ قِبَلِ بَنِي أُمَيَّةَ آنَذَاكَ، فَمَدَحَهُ ، وأُعجب الأميرُ بشعره فَاشْتَرَاهُ وَأَعْتَقَهُ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ لِهَذَا الْعِتْقِ أَثَرٌ عَظِيمٌ عَلَى نُصَيبٍ وَشِعْرِهِ؛ إِذْ أَنَّهُ سَعَى بَعْدَ ذَلِكَ يتكسّبُ بِشِعْرِهِ لِيُعْتِقَ جَمِيعَ أَهْلِ بَيتِهِ وَقَرَابَتِهِ، كَمَا ظَلَّ وَفِيًّا لِعَبْدِ الْعَزِيزِ بن مروان طِيلَةَ حَيَاتِهِ، فَكَانَ يَزُورُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وكان مُخلصاً له حتى بَعْدَ وَفَاتِهِ، حَيثُ رَثَاهُ بِشِعْرٍ رَصِينٍ وَعَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ وَفِيًّا لابْنِهِ عُمَرَ، وَكَانَ يَمْدَحُهُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ فَرَثَاهُمَا مَعَاً.

Abstract

This study deals with the influence of the manumission in the poetry of Nussaib Ibn Rabah, Servant of Abdulaziz Ibn Marwan, the Nubian Poet who lived within the confines of the Umayyad State and who was enslaved by someone from Bani Muhriz of Bani Damra in Hijaz. He wanted to free himself from bondage, so he headed to Abdulaziz Ibn Marwan, the then Umayyad ruler of Egypt. He praised him and Abdulaziz Ibn Marwan liked his poetry. He bought and freed Nussaib. This manumission has a great effect on Nussaib and his poetry. He started earning money from his poetry and used the money earned to free his family members and relatives. He also became very loyal to Abdulaziz Ibn Marwan and visited him every year. He was faithful to him even after he died he wrote sincere poetry of lamentation for his death. He also remained loyal to his son Omer and when Omer died, he wrote elegies lamenting the death of both of them.

مُقَدِّمَةُ الدِّرَاسَةِ:

أَحْمَدُ اللَّهَ جَلَّ وَعَلا، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَيرِ الْمَلاَ، وَبَعْدُ:

أَضَعُ بَينَ يَدَي الْقَارِئِ دِرَاسَةً عَنْ شَاعِرٍ نُوْبِيٍّ، فَصِيْحٍ مُقَدَّمٍ، عَاشَ في الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ، عَزِيْزاً –بَعْدَ أَنْ أُعْتِقَ– مُقَرَّباً لَدَى الْخُلَفَاءِ وَالوُلاةِ؛ لِمَا كَانَ يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ خِفَّةِ الرُوحِ، وحُسْنِ الثِّيَابِ، وَطِيبِ الرَّائِحَةِ، وصِدْقِ الوُدِّ، وكَمَالِ الْعَقْلِ، وتَوَقُّدِ الذِّهْنِ، وَصَفَاءِ السَّرِيْرَةِ، وجَزَالَةِ الشِّعْرِ، وَسَلاسَةِ الأُسْلُوبِ، وَهَذَا مِمَّا شَجَّعَ عَلَى مَوْضُوْعِ الْبَحْثِ في شِعْرِهِ.

وَ تَكمُنْ أَهَميَّةُ الدِّرَاسَةِ، فِي أَنَّ شَاعِرَاً نُوْبِيَّاً أَعْجَمَ، كَنُصَيْبِ بْنِ رَبَاحٍ، اسْتَطَاعَ أَنْ يُتْقِنَ الْعَرَبِيَّةَ، ويُبْدِعَ فِيها، وَيَفْتَنّ حَتَّى تَقَدَّمَ كَثِيرِينَ مِنْ فُحُولِ عَصْرِهِ، في مُسَاجَلاتٍ، وَمَجَالِسَ مُتَفَرِّقَةٍ، وَ مِنْ أُولَئِكَ الفَرَزْدَقُ، والكُمَيتُ، وَأَيمَنُ بْنُ خُرَيمٍ، وَغَيْرُهُمْ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَحَرَّرَ.

أَهَمُ مُشْكِلاَتِ البَحْثِ، تَتَمَثَّلُ فِي عُسْرِ الحُصُوْلِ عَلَى الدِّيوَانِ؛ وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الدِّيوَانَ رُبَّمَا طُبِعَ طَبْعَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ دِرَاسَةُ الدُّكْتور: دَاوُد سَلُّوم؛ لِذلِكَ كَانَ عَزِيْزَاً. إِضَافَةً إِلَى صُعُوبَةِ التَّحَرِّي والتَّحْقِيْقِ فِي شِعْرِ نُصَيْبٍ لِكَثْرَةِ الرِّوَايَاتِ، واختِلاطِهَا وَالخِلافِ فِي نِسْبَتِها.

كَذَلِكَ تَفَرُّقُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ الَّتي عَالَجَتْ مَوضوعَ الشَّاعِرِ، وَعَدمُ تَوافُرِهَا بالمكْتَبَاتِ المُتَاحَةِ، إِذْ لَمْ أَحْصُلْ عَلَى دِرَاسَةٍ لِلْمَوضُوعِ غَيرَ دِرَاسَةِ الدُّكْتور: دَاوُد سَلُّوم: نُصَيب بْن رَباحٍ حَيَاتُه وَشِعْرُهُ، وَهِيَ

عِبَارَةٌ عَنْ جَمْعٍ للدِّيوَانِ وَمُقَدِّمَةٍ جَيِّدَةٍ لِلدِّرَاسَةِ، وَمِنْ ثَمَّ رِسَالَةِ الدُّكْتور وَليد تَيمَة الْعُبيد: نُصَيب بْن رَباحٍ حَيَاتُه وَشِعْرُهُ، وَهِيَ دِرَاسَةٌ أَدَبِيَّةٌ نَقْدِيَّةٌ.

تَنَاوَلَ الْبَحْثُ مَسْأَلَةً مُهِمَّةً وَهِيَ أَهَمُّ الآثَارِ الَّتِي تَرَتَّبَتْ عَلَى الشَّاعِرِ نُصَيبِ بْنِ رَباحٍ بَعْدَ عِتْقِهِ، إِذْ جَعَلَتْ مِنْهُ شَاعِرَاً مُبْدِعَاً يَطْرُقُ أَبْوَابَ الْوُلاةِ وَالْخُلَفَاءِ بِشِعْرِهِ؛ حَتَّى أَعْتَقَ كُلَّ أَقَارِبِهِ، وَصَارَ يُنَاضِلُ كِبَارَ شُعَرَاءِ عَصْرِهِ.

قَسَّمْتُ الْبَحْثَ إِلَى:

مُسْتَخلَصٍ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ والإِنْجِلِيزِيَّةِ، ومُقَدِّمَةٍ، وَتَعريفٍ بِالشَّاعِرِ، والحديثِ عنْ رِقِّهِ وَعِتْقِهِ، وَأَثَرِ الْعِتْقِ فِي شِعْرِهِ، وَذَيَّلْتُ الْبَحْثَ بِأَهَمِّ النَّتَائِجِ والْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ.

التَّعْرِيفُ بِالشَّاعِرِ

هُوَ نُصَيبُ بْنُ رَبَاحٍ [١] مولَى عَبْدِ الْعَزِيْزِ بْنِ مَرْوَانَ [٢] وَاسْمُه بضَمِّ النُّونِ، وَفَتْحِ الصَّادِ المُهْمَلَةِ[٣] وكُنْيَتُهُ أَبُو مِحْجَنٍ[٤].

(١) مُحَّمد بن سلام طبقات فحول الشعراء ط دار المدني بجدة ج٢ ص ٦٤٨،
= الذَّهبي/ سيرُ أعلام النبلاء شرح شعيب الأرنؤوط ط٧ مؤسَّسةُ الرِّسالة بيروت ١٤١٠هـ – ١٩٩٠؛ ٢٦٦/٥
= الزركلي – الأعلام – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ط ١٤ دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ١٩٩٩م ج٣١/٨؛
= ياسين الأيُّوبي/ معجم الشعراء في لسان العرب ط ٢ ص ٣٥٩، ١٩٨٧؛
= أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني أشرف على مراجعته وطبعه العلامة الشيخ عبد الله العلايلي، موسى سليمان، أحمد أبو سعد، الناشر دار الثقافة بيوت ط٣ ١٣٨١هـ ، ١٩٦٢م ج٨ – ص٣٠٥،

(٢) هُوَ عَبْدُ العزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ الأُمَوِيِّ، أَمِيرُ مِصْرَ، وهَوَ مِنْ مَشاهِيرِ التَّابِعِينَ الَّذينَ رَوَوا الْحَدِيثَ، رَوَى عَنْ أَبِيهِ، وأَبِي هُرَيرَةَ، وعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ. وَرَوَى عَنْهُ ابنُهُ عُمَرُ أَمِيرُ المؤمِنينَ، والزُّهْرِيُّ، وَطائِفةٌ. وَثَّقَهُ النَّسَائِيُّ، وابْنُ سَعْدٍ مَاتَ سَنَةَ اثْنَتَينِ، وقِيلَ خَمْسٍ وثَمانِينَ. " السُّيُّوطيُّ، حُسنُ المُحاضَرَة فِي أَخْبارِ مِصْرَ وٱلْقَاهِرَة وَضعَ حَوَاشِيهِ خَليلُ المَنْصور، مَنشُوراتُ مُحمَّد عَلِي بَيْضُون ط١ دار الكتبِ العِلْمِيَّةِ بيروت – لبنان ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م. ص ٢١٦.

(٣) القاسم بن الحسين الخوارزمي – شرح المُفصَّل في صَنْعَةِ الإعراب – الموسوم بالتخمير ص ٣١ شرح عبد الرحمن سُلَيْمان العُثَّيمين ط ١ دار الغرب الإسلامي – ١٩٩٠م.

(٤) الذهبي ٢٦٦/٥،
= ابن سلام ٤٠٨/٢، = الزِّرِكْلي ٣١/٨.

ذَكَرَ التِّبْرِيزِيُّ[1] في سَبَبِ تَسْمِيَتِهِ عَنْ أَبِي بَكرِ بن يَزيدَ : لَقِيتُ يَوماً نُصَيباً بِبَابِ هِشامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فقُلْتُ يَا أَبَا مِحْجَنٍ، لِمَ سُمِّيتَ نُصَيباً؟ أَلِقَولِكَ فِي شِعْرِكَ:

عَاتَبَتْكَ النُّصَيبُ؟

فَقالَ: لا، وَلَكِنِّي وُلِدْتُ عِنْدَ أَهْلِ بَيتٍ مِنْ وَدَّانَ، فَقَالَ سَيِّدِي؛ ائْتُونِي بِمَولُودِنا هَذَا لِنَنْظُرَ إِلَيهِ فَلَمَّا أُتِيَ بِي قَالَ: إنهُ لَمُنَصَّبُ الْخَلْقِ، فَسُمِّيتُ النُّصَيبَ. أمَّا مَعْنَى الاسْمِ، فَلَعَلَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الحَظِّ، لأَنَّ نُصَيباً تَصْغِيرٌ، فَقَدْ يَكُونُ مِنَ النَّصِيبِ وَهُوَ الحَظُّ، أَوْمِنْ النَّصْبِ بِمَعْنَى الرِّفْعَةِ والعُلُوِّ، وَقَدْ ذَكَرَ ابنُ مَنْظُورٍ[2] فِي مَادَّةِ نَصَبَ مَعَانِيَ كثيرةً تدورُ حولَ مَا ذَكَرْنَا فقالَ : النُّصْبُ: وضعُ الشيئ وَرَفْعُهُ. والنَّصِيبَةُ، والنَّصِيبُ: كُلُّ مَا نُصِبَ فجُعِلَ عَلَماً. والنُّصُبُ: جَمَاعَةُ النَّصِيبَةِ، وَهِيَ عَلامَةٌ تُنْصَبُ لِلْقَومِ.

والنَّصْبُ والنُّصُبُ: الَعَلَمُ المَنْصُوبُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: (كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) قُرِئَ بِهِمَا جَمِيْعَاً

قَالَ الفَرَّاءُ : كأَنَّ النُّصُبَ الآلِهَةَ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ مِنْ أَحْجَارٍ. قَالَ الأَزْهَرِيُّ: وَقَدْ جَعَلَ الأَعْشَى النُصُبَ وَاحِداً مِنْ حَيثُ يَقُولُ:

وَذَا النُّصُبَ الْمَنْصُوبَ لا تَنْسُكَنَّهُ[3]

(١) الخوارزمي ص ٣١.

(٢) ابن منظور / لسان العرب نسَّقه وعلَّق عليه ووضع فهارسه علي شيري ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م. ج ١٤/١٥٤ – ١٥٧

(٣) الأعشى الكبير ميمون بن قيس – ديوانه ط دار صادر بيروت ص ٤٦.

والنُّصُبُ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَصْدَرٌ، وَجَمْعُهُ الأَنْصَابُ قَالَ ذُو الرُمَّةِ:(١)

طَوَتْهَا بِنَا الصُّهْبُ المهَارِي فَأَصْبَحَتْ

تَنَاصِيبَ أَمْثَالَ الرِّمَاحِ بِهَا غُبْرَا

والتَّنَاصِيبُ: الأَعْلامُ، وَهِيَ الأناصِيبُ، حِجَارَةٌ تُنْصَبُ عَلَى رُؤوسِ القُورِ(٢) يُسْتَدَلُّ بِهَا؛ وَقَولِ الشَّاعر:

وَجَبَتْ لَهُ أُذُنٌ يُرَاقِبُ سَمْعَهَا بَصَرٌ كَنَاصِبَةِ الشُّجَاعِ المُرْصَدِ

يُرِيدُ كَعَينِهِ الَّتي يَنْصِبُهَا لِلنَّظَرِ.

قَالَ ابنُ سِيدَه: والأَنْصَابُ حِجَارَةٌ كَانَتْ حَولَ الكَعْبَةِ، تُنْصَبُ فيُهَلُّ عَلَيهَا، وَيُذْبَحُ لِغَيرِ اللَّهِ تَعَالَى. وَأَنْصَابُ الحَرَمِ حُدُودُهُ والنُّصبةُ: السَّارِيَةُ والنَّصَائِبُ: حِجَارَةٌ تُنْصَبُ حَولَ الحَوضِ، وَيُسَدُّ مَا بَينَها مِنَ الخَصَاص بِالمَدْرَةِ الْمَعْجُونَةِ، واحِدَتُها نَصِيبَةٌ؛ وَكُلُّهُ مِنْ ذَلِكَ(٣).

أَبُو عُبَيدٍ: النَّصَائِبُ: مَا نُصِبَ حَولَ الْحَوضِ مِنَ الأَحْجَارِ؛ قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:(٤)

هَرقْنَاهُ فِي بَادِي النَّشِيئَةِ دَاثِرٍ قَدِيمٍ بِعَهْدِ الْمَاءِ بُقْعٍ نَصَائِبُهْ

(١) ديوانه قدم له وشرحه أحمد حسن بسج ط١ ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م دار الكتب العلمية ص ٨٧.

(٢) القُورُ جمع قارة وهي الأرض التي حجارتها سُوْدَاء. قال المتنبي:

صَحِبْتُ فيْ الفَلَواتِ الوَحْشَ مُنْفَرِدَاً حَتَّى تَعجَّبَ مِنِّي القُورُ وَالأَكَمُ

ديوانه ط ٣ دار صادر بيروت ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ص ٢١٣.

(٣) ابن منظور ١٤/١٥٥.

(٤) ذو الرُّمَّةِ، ديوانِهِ ص ٢٨.

وَقَالَ الجَوهَرِيُّ : وَ النُّصُبُ الحَوضُ، إذَنْ فَمَعْنَى الاسْمِ يَدُورُ حَولَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ كَلامِ اللُّغَوِيِّينَ مِنْ مَعْنَى الرِّفْعَةِ والسُّمُوِّ والعُلُوِّ والتعَظِيمِ، أَوْ الحَظِّ والنّصِيبِ.

قَالَ ابْنُ جِنِّي: نُصَيبٌ تَحْقِيرُ نَاصِبٍ عَلَى التَّرْخِيمِ، وَالنَّاصِبُ الجَادُّ فِي سَيرِهِ يُقَالُ نُصَيباً، إذَا رَفَعُوهُ، وَكُلُّ شَيءٍ رَفَعْتَهُ فَقَدْ نَصَبْتَهُ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَحْقِيرَ نَصْبٍ، هَذَا بَعْدَ أَنْ سُمِّيَ بِهِ فَزَالَ عَن، مَصْدرِيَّتِهِ(١).

ولابنِ جِنىِّ(٢) مَذْهَبٌ لَطِيفٌ فِي تَعْلِيلِ النَّصْبِ رُبَّمَا لَجَأْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ قَولُهُ: سَأَلْتُ غُلامَاً منْ آل المُهَيَّا فَصِيحَاً عَنْ لفْظةٍ مِنْ كَلَامِهِ لا يَحْضُرُنِي الآَنَ ذِكْرُهَا، فقُلْتُ: أكَذَا، أمْ كَذا؟ فَقَالَ : (كَذَا بِالنَّصْبِ؛ لأَنَّهُ أخَفُّ) فَجَنَحَ إلى الخِفَّةِ، وَعَجبْتُ مِنْ هَذَا مَعْ ذِكْرِهِ النَّصْبَ بِهَذا اللَّفْظِ. وأظُنَّهُ اسْتَعمَلَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ لأَنَّهَا مَذْكُورَةٌ عِنْدَهُم فِي الإنْشَادِ الَّذي يُقَالُ لَهُ: النَّصْبُ، مِمَّا يَتَغَنَّى بِهِ الرُّكْبَانُ. فالْمَعْنَى اللَّطِيفُ فِي الخِفَّةِ، وَقَدْ كَانَ نُصَيبٌ خَفِيفَ الْعَارِضَينِ.

(١) أبو الفتح عثمان بن جني المبهج في تفسير أسماء ديوان الحماسة ط دار الآفاق العربية القاهرة ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م" ص ٧٦.

(٢) أبُوُ الفتح عُثْمانُ بنُ جِنِّي – الخصائص ط المكتبة العلمَّية ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م ٧٨/١.

رِقُّهُ وعِتْقُهُ

كَانَ أَمْرُ الرِّقِّ مُنْتَشِرَاً فِي ذَلِكَ العَصْرِ، فسَعَى نُصَيبٌ سَعْياً حَثِيثاً لِيُعْتِقَ نَفْسَهُ، بَلْ وَيُعْتِقَ مَن يَعُولُ، فَقَدْ قَالَ أَبُو عَبُيدٍ الْبَكْرِيُّ[1] (إنَّ نُصَيباً كانَ عَبْدَاً، أَسْوَدَ، لِرجُلٍ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَكاتَبَ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ أَتَى عَبدَ العزيزِ بْنَ مَرْوانَ (فَمَدَحَهُ، فَوَصَلَهُ عَبدُ العزِيزِ، وَأَدَّى عَنْهُ مَا كاتَبَ بِهِ، فَصَارَ لَهُ وَلاؤُهُ).

وأَصْلُ القِصَّةِ، أَنَّ النُّصَيبَ الشَّاْعِرَ عِنْدَمَا اكتَشَفَ مَلَكَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ، وَكَانَتْ سِلْعَةً ثمِينَةً وَلا غَرْوَ فِي ذَلِكَ –إِذِ الشِّعْرُ دِيْوَانُ العَرَبِ– فَاعْتَزَمَ المُضِيَّ إِلَى عبدِ الْعَزِيزِ بنِ مَرْوانَ، وَنُصَيبٌ يَرْوِى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ؛ فَيَقُولُ[2] (... فَحَضَرْتُ بَابَهُ مَعَ النَّاسِ، فنُحِّيتُ عَنْ مَجْلِسِ الوُجُوهِ، فكُنْتُ وَرَاءَهُمْ، فَرَأيتُ رَجُلاً عَلَى بَغْلَةٍ حَسَنَ الهيئةِ، يُؤْذَنُ لَهُ أماشِي دَابَّتَهُ، فلمَّا رَآنِي قَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قُلتُ: نَعَمْ، أنا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الحِجازِ، شَاعِرٌ، وَقَدْ مَدَحْتُ الأَمِيْرَ، وَخَرَجْتُ إِلَيْهِ رَاجِياً لِمَعْرُوفِهِ، فَأَنْشَدْتُهُ، فَأَعْجَبَهُ شِعْرِي، فَقَالَ : وَيْحَكَ! هَذَا شِعْرُكَ؟ إِيَّاكَ أَنْ تَنْحَلَ؛ فإنَّ الأَمِيرَ رَاوِيَةٌ، عَالِمٌ بِالشِّعْرِ، وَعِنْدَه رُوَاةٌ، فلا تَفْضَحَنَّ نَفْسَكَ، فَقُلتُ: وَاللهِ مَا هُوَ إلا شِعْرِي، قَالَ: فَقُلْ أَبْيَاتاً تَذْكُرُ فِيْها حَوفَ مِصْرَ

(١) أبو عبيد البكري: سِمْطُ اللآلي في شرح أمالي القالي. ج١ ص ٢٩١-٢٩٢.
(٢) تعليق من أمالي ابن دريد ص ٩٠ – ٩٣.

وَتَفُضِّلُها عَلَى غَيرِها، وَالْقَنِي بِهَا غَدَاً، فَغَدَوتُ عَلَيهِ، وأنْشَدْتُهُ[1]:

سَرَى الهَمُّ تَثْنِينِي إلَيكَ طَلائِعُه ... بِمِصْرَ وَبالحَوفِ اعْتَرَتْنِي رَوَائِعُه
وَبَاتَ وِسَادِي سَاعِداً قلَّ لحْمُهُ ... عَنِ العَظْمِ، حَتَّى كَادَ تَبْدُو أشَاجِعُه

قَالَ: وَذَكَرْتُ فِيها الْغَيثَ فَقُلْتُ:

وَكَمْ دَونَ ذَاكَ الْعارِضِ البارِقِ الَّذي ... لَهُ اشْتَقْتُ مِنْ وَجْهٍ أسِيلٍ مَدَامِعُه
يُمشِّي بِهِ أفْنَاءُ بَكْرٍ وَمَذحَجٍ ... وَأفْنَاءُ عَمْرٍو وَهْوَ خِصْبٌ مَرَابِعُه
بِكُلِّ مَسِيلٍ مِنْ تِهامَةَ طيِّبٍ ... دَمِيثِ الرُّبَا تَسْقِي البِحارَ دَوَافِعُه

قَال: أَنْتَ وَاللهِ، شَاعِرٌ، احْضُرِ البَابَ فإنِّي ذاكِرُكَ، فَجَلسْتُ عَلَى الْبابِ، ودَخَلَ فَمَا ظَنَنْتُ أنَّه أمْكَنَهُ أنْ يَذكُرَنِي حَتَّى دُعِي بِي، فَدخَلْتُ، فَسَلَّمتُ عَلَى عبْدِ الْعَزِيزِ فصَعَّدَ فِيَّ بَصَرَهُ وَصَوَّبَ، ثُمَّ قَالَ: أشَاعِرٌ؟ ويْلَكَ! قُلْتُ: نَعَمْ، أيُّها الأمِيرُ، قَالَ: فَأنْشَدْنِي، فَأنْشَدْتُهُ فَأعْجَبَهُ شِعْرِى، وَجَاءَهُ الْحاجِبُ فَقَالَ: أيُّها الأمِيرُ هَذا أيْمَنُ بِنُ خُرِيمٍ الأسَدِيُّ بِالبابِ، قَالَ: فَأْذَنْ لَهُ، فَدَخَلَ، فَاطْمأنَّ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَيمنُ، كَمْ تَرَى ثَمَنَ هَذَا العَبْدِ؟ فَنَظَرَ إلِيَّ فَقَالَ: إنَّهُ لنِعْمَ الغادِي إثْرَ المَخَاضِ، ثَمَنُهُ مِئةُ دِينارٍ، قَالَ: فإنَّ لَهُ شِعْرَاً وَفَصَاحةً، قَالَ لِي أَيمَنُ: أتَقُولُ الشِّعْرَ؟ قَلْتُ : نَعَمْ، قَالَ: فَثَمَنُهُ ثلاثُونَ دِيناراً، قَالَ: يا أيمنُ أرْفَعُهُ وَتَخْفِضُهُ؟ قَالَ: لأنَّهُ أحْمَقُ، مَا لِهذَا وَ للشِّعْرِ، مِثْلُ هَذَا

(١) الكتبي ج١٩٩/٤ – ٢٠٠.

يَقُولُ الشِّعْرَ وَيُحْسِنُهُ؟ قَالَ: أَنْشِدْهُ يَاْ نُصَيْبُ، فَأَنْشَدْتُهُ، فَقَال لَهُ عبدُ العزِيزِ: كَيْفَ تَسْمَعُ؟ قَالَ: شِعْرٌ أَسْوَدُ، وَهُوَ أَشْعَرُ أَهْلِ جِلْدَتِهِ، قَالَ : هُوْ –وَاللهِ– أَشْعَرُ مِنْكَ، قَالَ : إِنَّك أَيُّها الأَمِيرُ لَمَلٌّ طَرِفٌ، قال: كَذَبْتَ –والله– مَا أنا كَذَلِكَ وَلَو كُنْتُ كَذلِكَ ما صَبَرْتُ عَلَيكَ تُنَازِعُنِي التَّحِيَّةَ، وتُؤَاكِلُنِي الطَّعامَ، وَتَتْكِيءُ عَلَى وَسَائِدِي وَفُرُشِي، وَبِكَ مَا بِكَ – يَعْنِي وَضَحاً كَانَ بأيمنَ – قَالَ: فَأْذَنْ لِيْ أَخْرُجْ إلى بِشرٍ بالْعِراقِ، واحْمِلْنِي عَلَى الْبَرِيدِ، فَفَعَلَ، فَخَرجَ أيمَنُ إِلَى بِشْرٍ فأنْشَدَهُ:

رَكِبْتُ مِنَ المُقَطَّمِ فِي جُمَّادَى ... إِلَى بِشْرِ بْنِ مَرْوانَ البرِيدَا
وَلَو أَعْطَاكَ بِشْرٌ أَلْفَ أَلْفٍ ... رَأى حَقّاً عَلَيهِ أَنْ يَزِيدَا
أمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَقِمْ بِبِشْرٍ ... عَمُودَ الدِّينِ إنَّ لَهُ عَمُودَا
وَدَعْ بِشْراً يُقَوِّمْهَا وَيُحدِثْ ... لأهْلِ الزَّيغِ إسْلاماً جَدِيدا
كَأنَّ التَّاجَ تَاجَ بَنِي هِرَقْلٍ ... جَلَوهُ لأعْظَمِ الأيَّامِ عِيدا
عَلَى دِيبَاجِ خَدَّي وَجْهِ بِشْرٍ ... إذَا الأَلْوَانُ خَالَفَتِ الْخُدُودَا

يَعْنِي بِقَوْلِهِ: إذا الأَلْوَانُ، لأَنَّهُ كَانَ بِوَجْهِ عَبدِ العزِيزِ كَلَفٌ.

فَأعقِبْ مِدْحَتِى سَرْجَاً خَلَنْجاً ... وَأَبْيَضَ جَوزَجانِيّاً عَنُودَاً
وَأَنَّا قَدْ وَجَـــــدْنَا أُمَّ بِشْرٍ ... كَأُمِّ الأُسْدِ مِذْكَاراً وَلُودَا

فأَعْطَاهُ مِئَةَ أَلفٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ القِصَّةَ الْجَاحِظُ أَيْضاً[١] وَذَكَرَ أَنَّ أَيمَنَ كَانَ يَخْضِبُ يَدَهُ، لِيُغَطِّيَ الْبَياضَ بِالْوَرْسِ، وَكَانَ بِشْرٌ لا يُؤَاكِلُهُ، فَاشْتَهَى بِشْرٌ لَبَناً، فأُتِيَ بِثَرِيدَةِ لَبَنٍ، فَقَالَ لِحَاجِبِهِ: انْظُرْ مَنْ يَأْكُلُ مَعِي. فَخَرَجَ فَوَجَدَ أيمَنَ بْنَ خُرَيمٍ، فلمَّا رَآهُ بِشْرٌ سَاءَهُ دُخُولُهُ، فَقَالَ: يَا أَيمَنُ، اشْتَهَيتُ الْبَارِحَةَ لَبَناً، ثُمَّ إِنِّي نَوَيتُ الصَّومَ، فَلا أَرَى أَحَداً أَحَقَّ بِهِ مِنْكَ. فَأَكَلَ أَيمَنُ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اصْفَرَّ اللَّبَنُ؛ فَقَالَ نُصَيْبٌ[٢].

تُعَالِجُ بِالحُصِّ الْبَيَاضَ فَلَمْ تَجِدْ دَوَاءً وَقَدْ دَاوَاكَ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَا

وَفِي رِوَايةِ الزَّجَّاجِ[٣] أَنَّ نُصَيباً هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْ نفْسِهِ فَقَالَ: قُولُوا عَلَى أَنْ أَبْرِيَ الْقِسِيَّ، وَأَرِيشَ السِّهَامَ، وَأَحْتَجِرَ الأَوتَارَ، فَقَالُوا : (بِكَذَا) قَالَ: قُولُوا عَلَى أنْ أَرْعَى الإِبِلَ وَأَمْرِيَهَا، وَأُقَضقِضَهَا وَأُصْدرَهَا، وَأُورِدَهَا وَأَرْعَاهَا وَأَرْعِيَهَا ... قَالَ نُصَيبٌ: قُولُوا عَلَى عَرَبِيٍّ شَاعِرٍ، لاْ يُوْطِيءُ وَلاْ يُقْوِي وَلا يُسَانِدُ[٤].

وَالإِيطَاءُ تَكْرِيرُ الْقَافِيَة، أُخِذَ مِنْ التَّوَاطُؤ، وَهُوَ التَّوَافُقُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لاتِّفَاقِ اللَّفْظَينِ[٥]، وَالإِقْوَاءُ تَحْرِيكُ الرَّوِيِّ مَقْرُوناً بِحَرَكَةٍ أُخْرَى

(١) الجَاحِظُ : كتاب البُرصان والعُرْجان والعُمْيان والحُولان تح وشرح عبد السلام محمد هارون ط١ دار الجيل بيروت ١٤١٠هـ-١٩٩٠ ص ١٦٦-١٦٨.

(٢) البيت غير موجود في ديوان نصيب.

(٣) الزَّجاج ص ٣٢.

(٤) نفس المصدر ص ٣٢.

(٥) الدماميني بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر العيون الغامزة على خبايا الرامزة، تح الحساني حسن عبد الله الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٢ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص ٢٧٢.

مُخَالِفَةٍ لِمَا قَبْلَهَا[١]، وَالسِّنَادُ هُوَ كُلُّ عَيبٍ يَلْحَقُ الْقَافِيَةَ، وَقِيلَ كُلُّ عَيبٍ سِوَى الإيطَاءِ والإِقْواءِ[٢].

هَذا مَا صَقَلَتْهُ بِهِ الْبَادِيَةُ، عِنْدَما كَانَ رَاعِياً لِلإِبْلِ فَعَرَفَ الشِّعْرَ، وقَوَاعِدَهُ وَعُيُوبَهُ، كَمَا عَرَفَ بَرْيَ القِسِيِّ، وَرَيش السِّهامِ، وَقِيَامَهُ بِالإِبِلِ، وَطُرُقَ الْبادِيَةِ.

لِهَذا إِذَا اعْتَاصَ عَلَيْهِ القَرِيضُ تذكَّرَ البَادِيَةَ فَحَنَّ إِلَيْهَا، كَمَا يَهِيجُ رَسْمُ الدِّيَارِ شُعُوْرَ الشُّعَرَاءِ، فَتَجُودُ قَرَائِحُهُمْ بِمَكنُونَاتِ قُلُوبِهِمْ وَمَطْوِيَّاتِ عَواطِفِهِمْ. وَكذا كَانَ نُصَيبٌ[٣] عِنْدَما سُئِلَ : أَتَطْلُبُ الْقَرِيضَ أَحْيَاناً فَيَعْسُرُ عَليكَ؟ فَقَالَ: إِي واللهِ لَرُبَّمَا فَعَلْتُ، فَآمُرُ بِرَاحِلَتِي فَيُشَدُّ عَلَيْهَا رَحْلِي، ثُمَ أَسِيْرُ فِي الشِّعَابِ الْخَالِيَةِ، وَأَقِفُ فِي الرِّبَاعِ الْمُقْوِيَةِ، فَيُطْرِبُنِي ذَلِكَ وَيَفْتَحُ لِيَ الشِّعْرَ.

وَمَا كَانَ لِنُصَيبٍ أَنْ يُقَرَّبَ زُلْفَى لَدَى الأَمَراءِ والوُلاةِ وَ الخُلَفَاءِ، لَو لَمْ يَكُنْ حُرًّاً عَتيقاً، وَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَحْظَى بِتِلْكَ المَكانَةِ التِّي ظَفِرَ بِها عِنْدَ عَبدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوانَ، وبِشْرِ بنِ مَرْوانَ، وَسُلَيمانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وهِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وغَيرِهِمْ، بَلْ كَانَ يُفضَّلُ كَثِيراً عَلَى فُحُولِ عَصْرِهِ، كَمَا فَاقَ أيمَنَ بنَ خُرَيمٍ، فِي مَجْلِسِ عَبدِ العزيزِ، وَفِي مَجْلِسِ بِشْرٍ، وَفَاقَ الْفَرَزْدَقَ، وَبَذَّهُ فِي مَجْلِسِ سُليمانَ

(١) نفس المصدر ص ٢٤٥.
(٢) نفس المصدر ص ٢٦٢.
(٣) الأصفهاني ٣٤٢/١.

بنِ عَبدِ الملِكِ وَكَانَ مِنْ خَاصَّتِهِ لأَنَّ عَبْدَ العزِيزِ بْنَ مَرْوَانَ عَنْدَمَا احْتُضِرَ؛ أَوْصَى بِنُصَيبٍ سُلَيمانَ خَيراً، فَصَيَّرَهُ فِي جُمْلَةِ سُمَّارِهِ. قَالُوا:[1] (فَدَخَلَ الفَرزْدَقُ عَلَى سُلَيمَانَ فَقَال لَهُ: يا أَبَا فِراسٍ أَنْشِدْنِي – وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُنْشِدَهُ مَدِيحاً– فِيهِ فأَنْشَأَ الْفَرَزْدَقُ يَقُولُ:

وَرَكْبٍ كأنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ ... لَهَا تِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بالعَصَائِبِ

إذَا أَبْصَرُوا نَاراً يَقُولُونَ لَيتَهَا ... وَقَدْ خَصِرَتْ أَيدِيهُمُ نَارُ غَالِبِ

فَتَمَعَّرَ سُلَيمَانُ وَارْبَدَّ؛ لَمَّا ذَكَرَ الْفَرَزْدَقُ غَالِباً، فَوثَبَ نُصَيبٌ فَقَالَ: أَلاْ أُنْشِدُكَ عَلَى رَوِيِّهِ مَا لاْ يُقَصِّرُ عَنْهُ:

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِين لَقِيتُهُمْ ... قِفَا ذَاتَ أَوشَالٍ وَمَولاكَ قَارِبُ

قِفُوا خَبِّرُونِي عَنْ سُلَيمَانَ إنَّنِي ... لِمَعْرُوفِهِ مِنْ آلِ وَدَّانَ طَالِبُ

فَعَاجُوا فَأَثْنَوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَ لَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيكَ الْحَقَائِبُ

فَقَالُوا تَرَكْنَاهُ وَفِي كُلِّ لَيلَةٍ ... يَطِيفُ بِهِ مِنْ طَالِبِي العُرْفِ رَاكِبُ

وَلَو كَانَ فَوقَ النَّاسِ حَيٌّ فَعَالُهُ ... كَفِعْلِكَ أَو لِلْفِعْلِ مِنْهُ يُقَارِبُ

لَقُلْنَا لَهُ شِبْهٌ وَلَكِنْ تَعَذَّرتْ ... سِوَاكَ عَلَى المُسْتَشْفِعِينَ الْمَطَالِبُ

هُوَ الْبَدْرُ وَ النَّاسُ الْكَوَاكِبُ حَولَهُ ... وَهَلْ تُشْبِهُ الْبَدْرَ الْمُنِيرَ الْكَوَاكِبُ

---

١) ابن خَلِّكان: وَفَيَاتُ الأَعْيَانِ وَأَنباء أَبْنَاءِ الزَّمَانِ تح إحسان عباس ط دار صادر.
- ابن قُتَيْبَةَ: الشِّعْرُ والشُّعَرَاءُ تح وشرحُ أحمد محمد شاكر ط دار المعارف شعبان ١٣٧٧هـ – فبراير ١٩٥٨ ج ١ ص ٤١٠ – ٤١١.
- أبو القاسم الزَّجَاجِي : أمالي الزَّجاجِي ص ٤٧ – ٤٨.
- داود سَلُّوم : ص ٥٩.

فَقَالَ لِلْفَرَزْدَقِ: كَيْفَ تَرَي شِعْرَهُ؟ فَقَالَ: هَوَ أَشْعَرُ أَهْلِ جِلْدَتِهِ. قَالَ سُليمانُ : وأَهْلِ جِلْدَتِكَ. ثُمَّ قَالَ يَاْ غُلامُ، أعْطِ نُصَيْباً خَمْسَمِائَةَ دِينَارٍ، وَإِلى الْفَرَزْدَقِ نَارَ أَبِيهِ.

فَوَثَبَ الْفَرَزْدَقُ وَهُوَ يَقُولُ:

وَخَيرُ الشِّعْرِ أَشْرَفُهُ رِجَالاً وَشرُّ الشِّعْرِ مَا قَالَ العَبِيدُ

وَلَيسَ قَولُ الفَرَزْدَق فِي شَيءٍ لأَنَّ الْحَقَّ لا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، وإِنَّمَا الرِّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ.

وَرُبَّمَا كانَ بَيتُ الْفَرَزْدَقِ مَقْلُوباً فَالشَّطْرُ الأَوَّلُ هُوَ الثَّانِي فيَكُونُ:

وَشَرُّ الشِّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ وَخَيرُ الشِّعْرِ أَشْرَفُهُ رِجَالاً

لأَنَّ ابْنَ قُتَيبَة قال:[1] (وَفِيهِ يَقُولُ:

- يَعْنِي الْبَيتَ السَّابِق وَمَا يَلِيهِ-:

إذا اعْتَاصَ الْقَرِيضُ عَلَيكَ فَامْدَحْ أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ تَجِدْ مَقَالا

أَتَتْكَ بِنَا قَلائِصُ يَعْمَلاتٌ وَضَعْنَ مَدَائِحاً وَحَمَلْنَ مَالا

وَبِذَلِك تَسْتَقِيمُ الْقَافِيَةُ.

وَقَدْ نُسِبَ البَيتَانِ الأَخِيرانَ لِنُصَيبٍ[2]

وَمِنْ أَبْرَزِ آثَارِ عِتْقِهِ، أَنَّهُ كَانَ مُقَدَّماً لَدَى الأَمرَاءِ، فَقَدْ رَوَى إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ[3]: (بَلَغَنِي أَنَّ نُصَيباً كَانَ إِمَّا قَدِمَ عَلَى هِشَامٍ أَخْلَى لَهُ

(١) ابن قُتَيْبَةَ الشَّعْرُ والشُّعَرَاء ج١ ص ٤١١.

(٢) داود سلوم ص ١٢٢ .

(٣) تعليقٌ مِنْ أَمالِي ابنِ دُرَيْدٍ ص ٩٣.

مَجْلِساً، وَاسْتَنْشَدَهُ مَرَاثِيَ أَبِيهِ، وَبَكَى مَعَهُ، فَأَنْشَدَهُ يَوماً مَدِيحاً لَهُ فِي قَصِيدَةٍ طوِيلَةٍ، يَقُولُ فِيهَا:

إذَا اسْتَبَقَ النَّاسُ الْعُلا سَبَقَتهُمُ يَمِينُكَ عَفْواً ثُمَّ صَلَّتْ شِمَالُكَا

فَقَال لَهُ هِشَامٌ : بَلَغْتَ غايَةِ المَدْحِ فَسَلْنِ أُعْطِكَ، قَالَ: يَدُك بالعَطِيَّةِ أَجْوَدُ وَأَبْسَطُ مِنْ لِسَانِيْ بالمَسْأَلَةِ، فَأَمَرَ لَهُ بخمْسِينَ أَلْفاً، وَمَا أَجَازَ هِشَامٌ بِهَا أَحَداً قَطُّ.

وَقِيلَ[1] : (إنَّه قَالَ لَهُ: لِي ابْنَةٌ أَنْفَقْتُ عَلَيها مِنْ سَوَادِي فَكسَدَها، فلَو أَنْفَقَهَا أَمِيرُ المُؤْمِنينَ بِشيءٍ يَجْعَلُهُ لَهَا؟ قال: فَأَقْطَعَهَا أَرْضاً، وَأَمَرَ لَهَا بِحَيٍّ، وَكِسْوَةٍ، فَنَفَقَتِ السَّودَاءُ).

وَمِنْ أَثَرِ العِتقِ عَلى نُصَيبٍ أَنَّه جَعَلَ لَهُ نَفْساً وَهِمَّةً عَالِيَتَينِ، فَكَانَ يَسْعى بِشِعْرِهِ لِعِتْقِ كُلِّ مَنْ يَسْتَطِيعُ عِتْقَهُ مِنْ قَرَابَتِه.

قالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ[2]: (كَانَ نُصَيبٌ يَتَتَّبعُ كُلَّ مَنْ كَانَتْ بَينَهُ وَبَينَهُ قَرَابَةٌ، فيَشْتَرِيهُ وَيُعْتِقَهُ، فَبَقِيَ ابنُ عَمٍّ لَهُ يُقَالُ لَهُ: سُحيمٌ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الأَعْرَابِ، فَقَال لِسَيِّدِهِ: بِعْنِي ابْنَ عَمِّي، هَذَا الذِي عِنْدَكَ، فَأَبَى عَلَيهِ، فَقَالَ لهُ نُصَيبٌ: كَمِ الَّذِى تَسْأَلُ بِهِ؟ فَذَكرَ شيئاً كثِيراً، فَقَالَ لَهُ: يُقْنِعُكَ هَذَا؟ قَالَ : نَعَمْ، قال: قَدْ أَخَذْتُهُ عَلَى أَنْ تُمْهِلَنِي فِي الثَّمَنِ، حَتَّى أَسْعَى فِيهِ فَأَجْمَعَهُ، قَالَ: فَمَنْ يَكْفِينِي أَمْرَ غَنَمِي؟،

(١) ابنُ عبدِ ربِّه العِقْدُ الفرِيْدُ منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت ط٢ ١٩٩٠ ج١ ص ١٧٣.

(٢) تعليق من أمالي ابن دريد ص ٩٤ – ٩٥.

قُلْتُ: غُلامِي هَذَا، وَهُوَ أَجْلَدُ مِنْهُ، يَقُومُ بِذَلِكَ كُلِّهِ، فَرَضِيَ بِهِ وَخَرَجْتُ فَطَلَبْتُ ثَمَنَهُ، وَسَأَلْتُ فِيْهِ حَتَّى أتمَّهُ اللهُ، وَجِئتُهُ فَدَفَعْتُهُ إِلَيْهِ، وَأَعْتَقْتُ سُحَيماً، فَكَانَ مَعِي، فَبينَا أَنَا يَوماً فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، إِذَا النَّاسُ مُجْتَمِعُونَ يَنْظُرُونَ، فَمِلْتُ إِلَيهِمْ، فَإِذَا سُحَيمٌ وَسْطَهَمْ سَكرَانَ باتَ يَزْمُرُ وَيَرْقُصُ، فَلَمَّا رَآنِي طرَحَ المِزْمَارَ مِنْ يَدِهِ، فَقُلْتُ: سُحَيمٌ! قَالَ : سُحَيمٌ، وَاللهِ لَئِنْ كُنْتَ أَعْتَقْتَنِي لِمَا تُحِبُّ، فَوَ اللهِ مَا أَنَا كَمَا تُحِبُّ، وإِنْ كَنْتَ أَعْتَقْتَنِي لِمَا أُحِبُّ فَهَذَا الَّذِي أُحِبُّ، فَقُلْتُ:

إِنِّي أَرَانِيْ لِسُحَيمٍ قَائِلا
إِنَّ سُحَيماً لَمْ يُثِبْنِي طَائِلا
وَلَمْ يَكُنْ بَرَّ الفُؤَادِ وَاصِلا
نَسِيتَ إِعمَالِي لَكَ الرَّوَاحِلا
وَقَرْعِيَ الأَبْوابَ فِيكَ سَائِلا
حَتَّى إِذَا آنَسْتَ خَيراً عَاجِلا
ولَّيتَنِي مِنْكَ القَفَا وَالْكَاهِلا
أَخْلُقَاً شَكْساً وَلَوناً حَائِلا

وَمِنْ أَبرَزِ آثَارِ العِتْقِ عَلَيهِ عُلُوُّ النَّفْسِ وثِقَتُها؛ فَقَدْ أَوْرَدَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي الطَبقَةِ الثَّانِيةِ مِنْ الأَجْوَادِ[1]: (الحَكَمَ بْنَ حُنْظُبَ، قِيلَ لَنُصَيبِ بْنِ رَبَاحٍ: خَرِقَ شِعْرُكَ أَبَا مِحْجَنٍ، قَالَ: لا، وَلَكِنْ خَرِقَ الكَرَمُ، لَقَدْ

(١) ابنُ عَبْدِ رَبِّهِ: ج١ ص ١٦٣ – ١٦٤.

رَأيتُنِي وَمَدَحْتُ الْحَكَمَ بْنَ حُنْظُبَ، فَأَعْطَانِي أَلْفَ دِينَارٍ، وَمائَةَ ناقَةٍ، وَأَرْبَعْمِائَةَ شَاةٍ).

وَقَولُ نُصَيبٍ هَذَا يُذَكِّرُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَالُوا هَجَرْتَ الشِّعْرَ قُلْتُ ضَرُورَةً ... بَابُ البَوَاعِثِ وَالدَّوَاعِي مُغْلَقُ

خَلَتِ الْبِلادُ فَلا كَرِيمٌ يُرْتَجَى ... مِنْهُ النَّوَالُ وَلاْ مَلِيحٌ يُعْشَقُ

أَثَرُ العِتْقِ فِي شِعْرِ نُصَيبٍ

فِي مُقَدِّمَةِ مَمْدُوحِي نُصَيبِ بْنَ رَبَاحٍ الشَّاعِرِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ؛ إِذْ هُوَ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ الَّذِي أَعْتَقَهُ، وأَنْعَمَ عَلَيهِ، وأَعْتَقَ أَهْلَهُ، وأَدْنَاهُ فِي مَجْلِسِهِ، ورَفعَ رُتْبتَهُ، وفضَّلَهُ عَلَى غَيرِهِ؛ كأيمَنَ بنِ خُرَيمٍ الشَّاعِرِ.

قَصَدَ نُصَيبٌ الشَّاعِرُ عبدَ العَزِيزِ بْنَ مَرْوَانَ دُونَ غَيرِهِ مِنْ وُلاةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالمَدْحِ، وعَلَّقَ بِهِ آمالَهُ ليُعْتِقَهُ، وأَهَلَهُ، ولَمْ يَخِبْ فِيهِ ظَنُّهُ، وَمِنْ أَشْهَرِ مَدَائِحِهِ فِيهِ قَولُهُ[1]:

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى قَومِهِ ... وغَيرِهِمُ نِعَمٌ ظَاهِرَه

فَبابُكَ أَلْيَنُ أبْوَابِهِمْ ... وَدَارُكَ مَأهُولَةٌ عَامِرَه

وكَلْبُكَ آنَسُ بالزَّائِرِيـــــــــنَ مِنَ الأُمِّ بِابنَتِها الزَّائِره

وكَفُّـــــكَ حِينَ تَرَى السَّائِلِـــــينَ أَنْدَى مِنَ اللَّيلَةِ الْماطِرَه

فَمِـــنْكَ العَطَـــاءُ وَمِنَّا الثَّـــناءُ بِكُـــلِّ مُحَـــبَّرَةٍ ســـائِرَه.

(١) داود سَلُّوم ص ٩٩.

والأبْيَاتُ لِنُصَيبٍ وقَدْ نَسَبَهَا أَبُو تَمَّامٍ(١). للأقَيبِلِ الْقَينِيِّ عَلَى شَكٍّ مِنْهُ لِقَولِهِ وتُرْوَى لِنُصَيبٍ. ونَسَبَها الْجاحِظُ لِعِمْرَانَ بن عصامٍ(٢)، ونَسَبَهُ الزِّجَاجِيُّ(٣) لِنُصَيبٍ وكَذَلِكَ الجُرْجَانِيُّ(٤) والأَبْيَاتُ فِي نِسْبَتِهَا إِلَى نُصَيبٍ، أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُنَسَبَ لِغَيرِهِ. ويَرَى الجُرْجَانِيُّ أَنَّ الأبْيَاتَ شَدِيدَةُ الشَّبَهِ بِغَيْرِها فَيَقُولُ: وتَنْظُرُ إِلَى قَولِ نُصَيبٍ:

لِعبدِ العَزِيزِ عَلَى قَومِهِ ... وغَيرِهِمُ نِعَمٌ ظَاهِرَه
فَبابُكَ أَلْيَنُ أبوابِهِمْ ... وَدَارُكَ مَأهُولَةٌ عَامِرَه
وكَلْبَكَ آنَسُ بالزَّائِرِي ... نَ مِنَ الأُمِّ بِابْنَتِهَا الزَّائِرَه

فَتَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ قَولِ الآخَرِ:

يكادُ إِذَا ما أَبْصَرَ الضَّيفَ مقبِلاً ... يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهْوَ أعْجَمُ

ورُبَّمَا لَمْ يكُنْ كَلامُ الجُرْجَانِيِّ غَرِيباً؛ لأَنَّ التَّوافُقَ فِي الشِّعْرِ مَوْجُودٌ، كَمَا قَالَ عَنْتَرَةُ(٥):

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

---

(١) أبو تَمَّامٍ، الوَحْشِيَّات (وهُوَ الحماسَةُ الصُغْرى، علَّق عليه وحقَّقه عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر ط ٣ دار المعارف ص ٢٦٠.

(٢) البخلاء ضبطه وشرحه وصححه أحمد الصوامري بك، علي الجارم بك منشورات محمد علي بيضون ط دار الكتب العلمية بيروت ج٢/ ٢١٥ – ٢١٦.

(٣) أمالي الزَّجاجِيِّ ص ٤٥ – ٤٦.

(٤) دلائل الإعجاز – قرأه وعلَّق عليه أبو فهر محمود مُحَّمد شاكر ص ٣٠٩.

(٥) ديوانه ص ١٥.

فَرُبَّما نَظَرَ بعضُهُمْ فِي قَولِ بَعْضٍ، فأخَذَ مِنْهُ لفْظَهُ، أوْ مَعْنَاهُ، وَصَاغَهُ صِيَّاغَةً جَدْيدَةً، بأَلْفَاظِهِ الْخَاصَّةِ، وَرُبَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ إسْمَاحَاً، مْنْ غَيرِ نَظَرٍ، مِنْ بَابِ تَوَارُدِ الخَوَاطِرِ، أوْ وَقْعِ الحَافِرِ عَلَى الْحَافِرِ، وَنَحْوِ ذَلِك، فانْظُرْ إِلَى أبْيَاتِ نُصَيبٍ وقَولِ ابن هَرَمَةَ(١):

لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ فَتىً فَجَعَتْ بِهِ ... يَومَ الْبَقيعِ حَوَادِثُ الأيَّـامِ
هَشٌ إذا نَزَلَ الوُفُودُ بِبَابِهِ ... سَهْلُ الحِجَابِ مُؤَدَّبُ الخُـدَّامِ
فَإذَا رَأَيتَ شَقِيقَهُ وَصَدِيقَـهُ ... لَمْ تَدْرِ أيُّهمَا أخُـو الأرْحَـامِ

تَجِدُ بَينَهُمَا صِلَةً قَوِيَّةً، ومِثْلُهُ قَوْلُ كَعْبِ بْنِ سَعْدٍ الغَنَوِنيِّ:

حَبِيبٌ إلَى الزُّوَّارِ غِشْيانُ بَيتِهِ ... جَميلُ المُحَيَّا شَبَّ وَهْوَ أدِيبُ
إذَا مَا تَرَاءَاهُ الرِّجالُ تَحفَّظُوا ... فَلَمْ تَنْطِقِ العَوراءَ وَهُوَ قَرِيبُ

وَصُورَةُ عبدِ الْعزِيزِ بْنِ مَرْوانَ، مِنْ خِلالِ الأبْيَاتِ، أنَّهُ رَجُلٌ فِي ذُرَا المجْدِ العُلْيَا، بِمَا لَهُ مِنْ نِعَمٍ ظَاهِرَةٍ، لا تُنكَرُ، ولا تُجحَدُ عَلَى قَومهِ وغَيرِهِمْ؛ وذَلِكَ بَادٍ مِنْ لِينِ بَابِهِ –وَهُوَ وَالٍ– وعِمْرَانِ دارِهِ بِالضُّيُوفِ، وجُبْنِ كَلْبِهِ؛ لِمَا أَلِفَ مِنْ كَثْرَةِ الوُفُودِ، مَعَ اختِلافِ دَرَجاتِهِمُ وطَبَقَاتِهِمْ، لِدَرَجَةٍ بَعيدَةٍ، فَاقَ بِهَا عَطْفَ الأُمُومَةِ، وأمَّا كفُّهُ مِنْ سَخَائِهَا، فَهَيَ أنْدَى مِنَ اللَّيلَةِ الْمَطِيرَةِ، فَيُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، ومَنْ

(١) البيان والتبيين، تح عبد السَّلام مُحمَّد هارون ط٢ الناشر مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٣٨٠هـ–١٩٦٠م القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج١/١٦٨.

لَمْ يسْأَلْهُ، فَيُغْنِي كُلَّ مَنْ وَصَلَ إلَيهِ، فَيَكُونُ نِتَاجُ ذَلِكَ ثَنَاءً تَسِيرُ بِهِ الرُّكْبَانُ، يُخَلِّدُهُ مَدَى الزَّمَانِ، فَتَأَمَّلْ قَولَ أَبِي الطِيِّبِ(١):

تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وأَنْعَلْتُ أفْراسِي بِنُعْمَاكَ عَسْجَدَا

وَقيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الإحْسَانَ قيداً تقيَّدا

قَالَ الآمِدِيُّ : (وهَكَذَا يَكُونُ الشِّعْرُ كَمَا قالَ الْبُحْتُرِيُّ (٢):

والشِّعْرُ لَمْحٌ تكْفِي إشَارَتُهُ وَلَيْسَ بِالْهَذْرِ طُوِّلتْ خُطَبُهْ

وَقَالَ البُحْتُرِيُّ أيضاً(٣):

وَمَعانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا الْقَوَافِي هَجَّنَتْ شِعْرَ جَرْوَلٍ ولَبِيدِ

حُزْنَ مُسْتَعْمَلَ الكَلامِ اخْتِياراً وتَجَنَّبْنَ ظُلْمَةَ التَّعْقِيدِ

وركِبْنَ اللَّفْظَ القَرِيبَ فأدْرَكْ نَ بِهِ غَايَةَ المُرَادِ البَعِيدِ

ولِذلك ذَهَب الآمِدِيُّ(٤) إلى قَولِهِ: (ولَيسَ الشِّعْرُ عِنْدَ أَهْلِ العِلمِ بِهِ إلا حُسْنَ التَّأَنِّي، وَقُرْبَ المَأْخَذِ، واخْتِيَارَ الكَلامِ، وَوَضْعَ الأَلْفَاظِ فِي مَواضِعِهَا، وَأَنَّهُ يُورِدُ المَعْنَى باللَّفْظِ المُعْتَادِ فِيهِ المُستَعْمَلِ فِي مِثْلِهِ، وَأَنْ تَكُونَ الاسْتعَارَاتُ والتَّمثِيلاتُ لائِقَةً بمَا اسْتُعِيرَتْ لَهُ، وغَيرَ مُنَافِرَةٍ لِمَعْنَاهُ؛ فإنَّ الْكَلامَ، لاْ يَكْتسِي البَهَاءَ وَالرَّونقَ، إلا إذَا كَانَ بِذَا الْوصْفِ، وتِلْكَ طَرِيقةُ البُحْتُرِيِّ.

---

(١) ديوانه ص ٢٣٧.

(٢) الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تَمَّامٍ والبُحْتُرِيِّ تح السَّيِّد أحمد صقر ط ٤ دار المعارف ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م ج١/٤٢٤.

(٣) نفس المصدر ونفس الجزء ص .

(٤) نفس المصدر ج١/٤٢٣.

ثُمَّ يَقُولُ[1]: (وأنَا أجمَعُ لَكَ مَعَانِيَ هَذَا الْبَابِ فِي كَلِماتٍ سَمِعْتُهَا مِنْ شُيُوخِ أَهْلِ العِلْمِ بالشِّعْرِ:

زَعَمُوا أَنَّ صِنَاعَةَ الشِّعْرِ، وغَيرَهَا مِنْ سَائِرِ الصِنَاعَاتِ، لاْ تَجُودُ وتَسْتَحْكِمُ إلاَّ بأرْبَعَةِ أشياءٍ (وَهِيَ): جَودَةُ الآلَةِ، وإصَابَةُ الغَرَضِ المقْصُودِ، وصِحَّةُ التَّأْلِيفِ، والانْتِهَاءُ إلَى تَمَامِ الصَّنْعَةِ مِنْ غَيرِ نَقْصٍ فِيهَا، وَلا زِيَادَةٍ عَلَيهَا.

وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي وَجَدْنَاهُ فِي شِعْرِ نُصَيبٍ فِي مَدْحِهِ عبدَ العزِيزِ بْنَ مَرْوانَ.

وَقَالَ فِيْهِ يمدحُهُ[2]:

أَلا أيُّها الرِّبْعُ الْمُقِيمُ بِعَينَبِ ... سَقَتْكَ الْغَوَادِي مِنْ مُرَاحٍ ومَعْزَبِ
بِذي هَيدَبٍ أمَّا الرُّبا تَحْتَ وَدْقِهِ ... فتَرْوَى وَأمّا كُلُّ وادٍ فيَزْعَبُ
ألاْ هَلْ أَتَى الصَّقْرَ ابْنَ مَرْوانَ أنَّني ... أُرَدُّ لَدَى الأبْوابِ عَنْهُ وأُحْجَبُ
وإنِّي ثَوَيتُ الْيَومَ والأَمْسِ قَبْلَهُ ... عَلَى الْبابِ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ
وإنِّي إذَا رُمْتَ الدُّخُولَ تَرُدُّنِي ... مَهَابَةُ قَيسٍ والرِّتَاجُ المُضَبَّبُ
وَأَهْلِي بِأَرْضٍ نَازِحُونَ وَمَا لَهُمْ ... بِهَا كاسِبٌ غَيْرِيَ ولا مُتَقَلَّبُ
فَهَلْ تُلْحِقَنِّيهِمْ بِعَبْلٍ مُوَاشِكٍ ... عَلَى الأَينِ مِنْ نُجْبِ ابنِ مَرْوَانَ أصْهَبُ
أبو بَكرَاتٍ إنْ أرَدْتَ افْتِحَالَهُ ... وَذُو ثَبَتَاتٍ بالرَّدِيفَينِ مُتْعَبُ

(١) نفس المصدر ج١/٤٢٦.
(٢) داود سَلُّوم ص ٦٢-٦٣.

وَقَدْ نُسِبَ الْبَيْتُ الأوَّلُ للأحْوَصِ الأنْصَاري[1] وذكر مُحَقِّقُ دِيوَانِهِ[2] أنَّ البَكْرِيَّ فِي مُعْجَم مَا اسْتَعْجَمَ (عَينَبَ) نَسَبَ هَذَا البَيتَ للأحْوَصِ الأنْصَارِيِّ، ولَعَلَّهُ الصَّحِيحُ لأنَّهُ مُخالفٌ لِرَوِيِّ القَصِيدَةِ الَّتِي يَمْدَحُ نُصَيبٌ بِهَا عَبْدَ العَزِيزِ بنَ مَرْوَانَ، والِي مَصرَ.

وَقَدْ قَدَّمَ الشَّاعِرُ لأبْيَاتِهِ، بالوُقُوفِ عَلَى الأطْلالِ، في لَمْحةٍ سَرِيعَةٍ، بالدُّعاءِ لَهَا بالسُّقْيَا، الَّتي تَرْوِيْ رُبَاهَا، وتُنْبِتُ كَلأهَا، ثُمَّ دَخَلَ فِي مَوْضُوعِهِ الَّذِي يَشْغَلُ بَالَهُ، دُونَ تَخَلُّصٍ مِنْ تِلْكَ المُقدِّمَةِ، مُبَجِّلاً مَمْدُوحَهُ عَبدَ العَزِيزِ، بَوَصْفِهِ صَقْراً شُجَاعاً، ثُمَّ بَيَّنَ لِهٌ حَالَهُ، بِلَهْجَةٍ مُبَاشِرَةٍ، حَيثُ أقَامَ عَلَى بَابِهِ أيَّاماً، دُونَ عِلْمِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، إلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الدُّخولَ مَهَابةً، ثُمَّ ذَكَرَ أهْلَهُ النَّازِحِينَ، ولَيسَ لَهُم كَاسِبٌ غَيرَه، ثُمَّ طَلَبَ طَلَبَاً مُتَواضِعاً بِطَرِيقٍ مُبَاشِرَةٍ، طَلَبَ بَعِيراً يُقِلُّهُ إلَى أهْلِهِ، مِنْ إبِلِ ابن مَرْوَانَ الصُّهْبِ، النَّجِيبَةِ، الفُحُولِ الأصِيلةِ.

وَهَذَا نَحْوُ قَولِ الحُطيئةِ لأمِيرِ المُؤمِنين عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب–رضي الله عنه:

مَاذَا تَقُولُ لأفْرَاخٍ بِذِي مَرَخٍ ... زُغْبِ الحَواصِلِ لا مَاءٌ ولا شَجَرُ

غَيَّبتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ... فَاغْفِرْ عَلَيكَ سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ

(١) شِعْرُ الأحوصِ الأنْصَارِيِّ جمعه وحَقَّقَهُ عادل سُلَيمان جمال، قَدَّم له شوقي ضيف – الناشر مكتبة الخاني بالقاهرة ط٢ ١٤١١هـ – ١٩٩٠م ص ٢٦٧.

(٢) نفس الصَّفحة (الهامش).

وَكَانَ نُصَيْبٌ كَثِيراً مَاْ يَرِدُ عَلَى عَبدِ العَزِيزِ فيسألُهُ، ولَوْ لَمْ يكُنْ عَبدُ العَزِيزِ كَرِيماً كَمَا وَصَفَهُ الشَّاعِرُ؛ لَمَا أعْطَاهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، وَلَوْ مَنَعَه مَرَّةً وَاحِدَةً، لَمَا وَفَدَ عَلَيْهِ ثَانِيةً، لِمَا اتَّصَفَ بِهِ نُصَيْبٌ مِنْ صِفَاتِ الْعِفَّةِ، ونَحْوِهَا مِمَّا سَلَفَ.

ولَعَلَّ هَذِهِ الأبياتَ، هِيَ أوَّلُ ما دَخَلَ بِهِ عَلَى عبدِ العَزِيزِ؛ لِعِلْمِنَا أنَّهُ أضَلَّ بَعِيراً، مِنْ إبِلِ سَيِّدِهِ، فَطَلَبَهُ من عَبْدِ العَزِيْزِ، وَأَنَّهُ لَمَا قَدِمَ مِصْرَ حُجِبَ عن الدُّخولِ عَلَيهِ، ولذلك نَظَمَ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ، وَلَمَّا دَخَل عَلَى عبدِ العزِيزِ، وَصَارَ الدُّخُولُ عَلَيهِ سَهْلاً؛ بَعْدَ أنْ عَرَفَهُ عَبْدُ العَزِيْزِ، وقَرَّبَهُ نَظَمَ قَصِيدَتهُ الأُخْرَى:

فبابُكَ أليَنُ أبْوابِهِمْ ... ودَارُكَ مَأْهُولَةٌ عَامِرَهْ

ولِذَا جاءَه مَرَّةً أُخْرَى مادِحاً لِيُعْتِقَ أهْلَهُ فَقَالَ[1]:

وإنَّ وَرَاءَ ظَهْرِيَ يا ابْنَ لَيْلَى ... أُنَاسَاً يَنْظُرُونَ مَتَى أؤُوبُ

أُمَامَةُ مِنْهُمُ وَلِمَاقَيِيهَا ... غَدَاةَ الْبَيْنِ فِي أَثَرِي غَرُوبُ

تَرَكْتُ بِلادَهَا وَنَأَيتُ عَنْهَا ... فأشْبَهُ مَاْ رأيتُ بِهَا السُّلُوبُ

فأتْبِعْ بَعْضَنَا بعْضَاً فَلَسنَا ... نُثِيبُكَ لَكِنِ اللهُ الْمُثِيبُ

وَقَالَ أَيضَاً[2]:

وَقَالَتْ بِالغَدِيرِ غَدِيرِ خُمٍّ ... أُخَيَّ إلى مَتَى هَذَا الرُّكُوبُ

(١) داود سلُّوم، ص ٦٣.

(٢) داود سلوم ص ٦٤.

أَلَمْ تَرَ أنَّنِي مَا دُمْتَ فِينَا أنَامُ وَلا أَنَامُ إِذَا تَغِيبُ

وَلَعَلَّ الأبْيَاتَ مِنْ مَقْطُوعَةٍ وَاحِدَةٍ، لا سيَّمَا أنَّ جَامِعَ الدِّيوَانِ، ذَكَرَ أَنَّهُ تَدَخَّلَ فِي تَرْتِيبِ بَعْضِ الأبياتِ، أَوْ قَدْ يكُونُ وَجَدَ كُلَّ مقطعٍ مِنْهَا عَلَى حِدَةٍ، فإذَا أعَدْنَا تَرْتِيبَهَا بطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ، بِحَيثُ يَكْتَمِلُ المَعْنَى، لَكانَ حَسَناً سائِغاً كَمَا يِلِي:

وَإِنَّ وَرَاءَ ظَهْرِيَ يَا ابْنَ لَيْلَى أنَاساً يَنْظُرُونَ مَتَى أؤوبُ
أُمَامَةُ مِنْهُمُ وَلِماقِيَيهَا غَدَاةَ الْبينِ فِي أَثَرِي غَرُوبُ
وَقَالَتْ بِالغَدِيرِ غَدِيرِ خُمٍّ أُخِيَّ إلى مَتَى هَذَا الرُّكُوبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّنِي مَا دُمْتَ فِينَا أَنَامُ وَلا أَنَامُ إِذَا تَغِيبُ
تَرَكْتُ بِلادَهَا ونَأَيتُ عَنْهَا فَأَشْبَهُ مَا رَأَيْتُ بِهِ السُّلُوبُ
فأتْبِعْ بَعْضَنَا بعْضَا فَلَسْنَا نُثِيبُكَ لَكِن اللهُ الْمُثِيبُ

فَيَكُونُ حِيْنَئِذٍ الْمَعْنَى مُتَّسقاً، والْمَوْضُوعُ واحِداً، والتَّرْتِيبُ جَيِّداً؛ ورُبَّمَا ذَكَرْنَا فَي هَذَا الْمَقامِ أبْيَاتَ أُمَيَّةَ بْنَ أبِي الصَّلْتِ لعَبْدِ اللهِ بنِ جَدْعَانَ[1] إِذْ أَنَّهُمَا يَتَنَاسَبَان:

أأذْكُرُ حَاجَتِي أمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ
إذَا أثْنَى عَلَيكَ الْمَرْءُ يَوماً كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

وَلَعَلَّ كَثِيراً مِنْ أَشْعَارِ نُصَيبٍ ضَاعَتْ، لِعِدَّةِ أسْبابٍ، مِنْهَا، أَنَّهُ مَولَى، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ رَاوِيةٌ مَعْرُوفٌ، ورُبَّمَا نُسِبَ أكثَرُ شِعْرِهِ لِغَيرِهِ، لِمَا نَرَى

(١) عُيُونُ الأَخْبارِ ج١٤٩/٣.

مِنْ تَضَارُبِ الرِّوايَاتِ، فِي نِسْبَةِ أشعارِهِ، كَمَا مَرَّ بِنَا فِي النَّصِّ السَّابِق: (لِعَبدِ العزيزِ عَلَى قَومِهِ)

مَعَ شُهْرَتِهِ لِنُصَيبٍ، وَرُبَّمَا ضَاعَ بَعْضُ الْقَصِيدة، أو مُعْظَمُهَا (وإنَّ وَرَاءَ)، أو تَفَتَّتَتْ إِلَى أَجْزَاءٍ كَمَا فِي النَّصِّ، فاخْتَلَّ تَرْتِيبُ أَبْيَاتِها.

فالنَّصُّ دُونَ مُقَدِّمَةٍ، ولا يُعْقَلُ أنْ يَبْدأ قَصِيدَتَهُ مُبَاشرةً بِقَولِهِ:

وَإِنَّ وَرَاءَ ظَهْرِي يَا ابْنَ لَيْلَى.....

لابُدَّ أنَّ لِلقَصِيدَةِ مُقَدِمَةً، ولَعَلَّهَا ضَاعَتْ، وَرُبَّما كانَتْ أكثرُ قَصَائِدِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، ولم تَظْهَرْ مِنهَا إلاَّ المَقْطُوعَةُ، أو الْبَيتُ، والْبيتانِ.

وَغَيرُ ذَلِكَ مِنْ شِعْرِ الغَزَلِ الَّذِي نُسِبَ كَثِيرٌ مِنْهُ لِغَيرِهِ، وَمِثْلُهُ قَولِهِ يَمْدَحُ عَبْدَ العَزِيزِ [1]:

يَقُولُ فَيُحْسِنُ القَولَ ابْنُ لَيلَى ... وَيَفْعَلُ فَوقَ أحْسَنِ مَا يَقُولُ

فَتًى لا يَرْزأُ الْخُلانَ إلا ... مَوَدَّتَهُمْ وَيَرْزَؤُهُ الْخَلِيلُ

فَبَشِّرْ أهْلَ مِصْرَ فَقَدْ أتَاهُمْ ... مَعَ النِّيلِ الَّذِي فِي مِصْرَ نِيلُ

وقَدْ أوْرَدَ الْبَيْتَ الأوَّلَ الْجَاحِظُ[2] فِيما يدْخُلُ فِي بَابِ الخُطَبِ ثُمَّ قَالَ: وَقَالَ الآخَرُ:

أَلاْ رُبَّ خَصْمٍ ذِي فُنُونٍ عَلَوتُهُ ... وَإنْ كَانَ أَلْوَى يُشْبِهُ الحَقَّ بَاطِلُهْ

(١) داود سَلُّوم ص ١١٤.

(٢) البيان والتبيين ج٢١٩/١ – ٢٢٠.

فَهَذا مَعْنى قَولِ العَتَّابِيِّ: (الْبَلاغَةُ: إظْهَارُ مَا غَمُضَ مِنَ الحَقِّ، وَتَصْوِيرُ الْباطِلِ فِي صُوَرةِ الحَقِّ). وَقَال الشَّاعِرُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ:

عَجِبْتُ لإدْلالِ الْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْقَولِ أعْلَمَا

وَفِي الصَّمْتِ سِرٌّ لِلْعَيِيِّ وَإنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ المَرْءِ أنْ يَتَكَلَّمَا

وَمَوْضِعُ الصَّحِيفَةِ مِنْ هَذَا البَيتِ، مَوْضِعُ ذِكْرِ (العُنُوانِ) فِي شِعْرِ مَنْ رَثى عُثْمَانَ بْنَ عفَّانَ -رَحمَهُ اللهُ- بِهِ حَيثُ يَقُولُ:

ضَحَّوا بِأشْمَطَ عُنْوانُ السجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنا

وَإذا جَعَلْنَا كَلامَ الجَاحِظِ هَذَا في الْبَيَانِ، عُمْدَةً لَنَا لقُلْنَا: إنَّ نُصَيباً أرادَ أنْ يَقُولَ: بِأَنَّ عَبْدَ الْعَزِيزِ قَدْ مَلَكَ ناصِيَةَ الْبَيانِ، والفصَاحَةِ، فِي مقَامِ الْقَولِ، فَإذَا جاءَ مَقَامُ الفِعْلِ، بَذَّ بِفعْلِهِ قَولَهُ، وَهَذا هُوَ الفَضْلُ أجْمَعُ. وَمِثْلُهُ قَولُ الْمُتَنَبِّي:

مَلُومُكُما يَجِلُّ عَنِ المَلامِ وَوَقْعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الكَلامِ[1]

وَفِي هَذَا المَقَامِ مَقَامِ الْبَيَانِ، شِعْرُ زُهَيرِ بْنِ أَبي سُلْمَى[2]:

وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أو نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إلا صُورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

(١) ديوانه ص ٣١١.

(٢) ديوانه ط دار صادر ص ٨٨ – ٨٩.

وَكذلِكَ قَولُ بِشَّارٍ[١] في الْمَدْحِ:

إذَا قَالَ تَمَّ عَلَى قَوْلِـهِ وَمَاتَ الْعَنَاءُ بِلا أو نَعَمْ

كجَارِي السَّرابِ تَرَى لَمْعَهُ وَلَسْتَ بِوَاجِدِهِ عَنْدَ كَمْ

وعَكْسُهُ قَوْلُ زِيادٍ الأعْجَمِ[٢] فِي الْهِجَاءِ:

للهِ دَرُّكَ مِنْ فَتًى لَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَقُولْ

لاْ خَيرَ في كَذِبِ الْجَوَادِ وَحَبَّذا صِدْقُ الْبَخِيلْ

وَقَدْ رَوَى أَبُو عُمَرَ الكِنْدِيُّ فِي ذَلِكَ قَائِلاً[٣]: (الْتقَى زهيرُ بنُ قَيسٍ البَلَوِيُّ، وعبدُ الْعزيزِ بنُ مَرْوَانَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَى مِصْرَ مع أَبِيهِ، إلى عُمَّالِ عَبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ بِبُسَاقٍ – وَهُوَ سَفْحُ عَقَبَةِ أيكةَ – فانْهَزَمَ زُهَيرٌ وَمَنَ مَعَهُ؛ فَقَالَ نُصَيبٌ:

حَلْتَ بُساقاً والبِطَاحَ فَلَمْ تَـرِمْ بِطَاحَكَ كَيمَا أَنْ حَمَيتَ ذِمَارَكَا

فسُؤْتَ الأُلى ولَّوا عَنِ الأمْرِ بَعْدَما أرادُوا عَلَيهِ فَاعْلَمَنَّ اقْتِسَارَكَا

والرِّوايَةُ في الدِّيوانِ (حَلت بُسَاقاً) ولَعَلَّهَا حَلَلْتَ وَكذلكِ (فساءت) ولعَلهَا فسُؤْتَ؛ لأن البيتَين يَنْكَسِرَانِ مِنْ جِهَةِ الْوَزْنِ وَالْمَعْنَى؛ إنْ تُرِكاً عَلَى مَا فِي الدِّيوانِ مِنْ خطأٍ –لعلَّهُ طِبَاعِيٌّ– ومن تِلكَ الأبْيَاتِ المُتقطَّعَةِ أيْضاً قَولُهُ[٤]:

مَنْ ذَا ابنَ لَيلَى جَزَاكَ اللهُ مَغْفِرةً يُغْنِي مَكانَكَ أوْ يُعْطِي كَما تَهَبُ

(١) عُيونُ الأخبارِ ج٣/١٤٦.
(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٣) داود سَلُّوم ص ١١٢.
(٤) نفس المصدر ص ٦٤.

قَدْ كَانَ عِنْدَ ابْنِ لَيلَى غَيرَ مُعْوِزَةٍ لِلْفَضْلِ وَصْلٌ وَلِلمُعْتَرِّ مُرْتَغَبُ

قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ [١]: المُعْتَرُّ: الَّذِي يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بالمَسأَلَةِ، وَلا يُصَرِّحُ، وَيُقَالُ: المُعْتَرُّ السَّائِلُ. قَالَ نُصَيبٌ فِي المُعْتَرِّ:

مَنْ ذَا ابنَ لَيلَى جَزَاكَ اللهُ مَغْفِرةً يُغْنِي مَكانَكَ أوْ يُعطِي كَما تَهَبُ

قَدْ كَانَ عِنْدَ ابْنِ لَيلَى غَيْرَ مُعْوِزَةٍ لِلْفَضْلِ وَصْلٌ وَلِلمُعْتَرِّ مُرْتَغَبُ

رِثَاءُ نُصَيبٍ لِعَبْدِ الْعَزِيْزِ وابْنِهِ عُمَرَ:

وَلَعَلَّ أَثَرَ العِتْقِ كَانَ عَمِيقَاً فِي نَفْسِ نُصَيبٍ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ نِسْيَانَ فَضْلِهِ عَلَيهِ، حَتَّى بَعْدَ وَفَاةِ مَن تَسَبَّبَ فِي عِتْقِهِ فَرَثَاهُ.

ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ[٢] "قِصَّةَ عَبْدِ العزِيزِ بْنِ مَرْوانَ، فَقَالَ : (.. وَدَخَلَ مَرْوانُ إِلَى مِصْرَ، فَتَمَلَكَها، وَجَعَلَ عَلَيهَا وَلَدَهُ عَبدَ العزِيزِ، في سَنَةِ خَمْسٍ وستِّينَ، فَلَمْ يَزَلْ أَمِيراً بِهَا عِشْرِينَ سَنَةً. وَكَانَ أَبُوهُ جَعَل إليهِ عَهْدَ الْخِلافَةِ بَعْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَكَتَبَ إِليهِ عَبْدُ الْمَلِكِ يَسْتَنْزِلُهُ عَنِ الْعَهْدِ الَّذِي لَهُ مِن بَعْدِهِ، لوَلدِهِ الْوَلِيدِ، فَأَبَي عَلَيهِ، ثُمَّ إِنَّهُ ماتَ مِنْ عَامِهِ.

قَالَ ابْنُ عَبدِ الحَكَم: وَقَعَ الطَّاعَونُ بالفُسْطَاطِ، فَخَرجَ عَبدُ العزِيزِ إِلَى حُلْوانَ، وَكَانَ ابنُ خُدَيجٍ يُرْسِلُ إِلَيهِ فِي كُلِّ يَومٍ بخَبرِ مَا يَحْدُثُ فِي البَلَدِ مِنْ مَوتٍ وَغَيرِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيهِ ذَاتَ يَومٍ رَسُولاً فأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ

(١) محمد بنْ القاسِمِ الأنْباريُّ: كتاب الأضداد، تح مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم – ط المكتبة العصرية صيداء – بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ص ٦٦ – ٦٨.

(٢) جلال الدين عبدالرحمن بن محمد بن عثمان السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج٢/٩.

عَبدُ العَزِيزِ : ٠مَا اسْمُكَ؟ قَالَ : أَبُو طَالِبٍ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَى عَبدِ الْعَزِيزِ وَغَاظَهُ، فَقَالَ: أسألُكَ عَن اسْمِكَ فَتَقُولُ : أَبُو طَالِبٍ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: مُدْرِكٌ، فَتَفَاءَلَ عَبدُ الْعَزِيزِ بِذَلِكَ فَمَرِضَ، فَدَخَلَ نُصَيبٌ الشَّاعِرُ، فأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَنَزُورُ سَيِّدَنَا وَسَيَّدَ غَيرِنَا ... لَيتَ التَّشَـــكِّي كَانَ بِالْعُـوَّادِ

لُو كَانَ يُقْبَلُ فِدْيَةٌ لَفَدَيتُهُ ... بِالْمُصْطَفَى مِنْ طَارِفِي وَتِلادِي

فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينارٍ، ثَمَّ مَاتَ عِبدُ العزِيزِ بِحُلْوانَ، فَحُمِلَ فِي الْبَحْرِ إلى الفُسْطَاطِ، وَدُفِنِ بِمَقْبَرَتِهَا".

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ لَيلَةَ الاثْنَينِ ثَانِي عَشَر جُمَادَى الأُولى سَنَةَ سِتٍّ وثَمَانِينَ.

وكُتِبِ هَذَا التَّارِيخُ عَلَى قَبْرِهِ بِحُلْوَانَ:

فَقَالَ نُصَيبٌ يَرْثِيهِ(١):

أُصِبْتُ يَومَ الصَّعِيدِ مِنْ سُكَرٍ ... مُصِيبَةً لَيسَ لِي بِهَا قِبَلُ

تَاللهِ أَنْسَى مُصِيبَتِى أَبَـداً ... مَا أَسْمَعَتْنِي حَنِينَهَا الإِبِـلُ

وَلا التَّبَكِّي عَلَيه أُعْوِلُـهُ ... كُلُّ الْمُصِـيبات بَعْدَهُ جَلَلُ

لَمْ يَعْلَمِ النَّعْشُ مَا عَلِيـــهِ مِنَ الْـعُرْفِ وَلا الْحَامِلُونَ مَا حَمَلُوا

حَتَّى أَجَنُّوهُ فِي ضَرِيحِهِمُ ... حَتَّى انْتَهَى مِنْ خَلِيلِهِ الأَجَلُ

هَذِهَ الْمَقْطُوعَةُ عَلَى قِلَّةِ أبيَاتِهَا، وَهِي خَمْسَةٌ كمَا تَرَى، إلاَّ أنَّ الشَّاعِرَ قَدْ سَكَبَ مِنْ خَلالِها عَوَاطِفَهُ الصَّادِقَةَ، فِي تَصْوِيرِ المُصيبَةِ، الَّتِي هَالَتْهُ بِمَا لا قِبَلَ لَهُ بِهِ، ففجَعَتْهُ في مَولاهُ بالصَّعِيدِ – وَهِي أَرْضُ

(١) داود سلُّوم ص ١١٣.

مِصْرَ الْجُنُوبِيَّة – وسُكَرُ (أصْلُهَا : اسْكرُ) – وهِي قَرْيَةٌ مَشْهُورَةٌ نحو صَعِيدِ مِصْرَ.

فَعَلِقَتْ هَذِهِ المُصِيبَةُ بذِهْنِهِ، أبَدَ الدَّهْرِ بِحَيثُ لنْ ينْسَاهَا، مَا دامَ حيَّاً، وَمَا دَامَ يسْمَعُ حَنِينَ الإبِلِ، وَهُنَا يَغْلِبُ عَلَيهِ طَابعُ البَدَاوَةِ؛ لأنَّ الْبَدَوِيَّ يَرْبِطُ كُلَّ شَيْءٍ بِبِيئَتِهِ، فَالإبِلُ يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي شِدَّةِ الْحَنِينِ، وقُوَّتِهِ، ومِثْلُهُ قَولُ حسَّانَ بْنِ ثابِتٍ(١):

أقْسَمْتُ أنْسَاهَا وأتْرُكُ ذِكْرَهَا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الضَّرِيحِ عِظَامِي

قَالَ ابْنُ رُشْدٍ: المُحَاكَاةُ تَقَعُ بِالتَّذْكِرَةِ وَذَلِكَ أَنْ يُورِدَ الشَّاعِرُ شَيئاً يُتَذَكَّرُ بِهِ شيئٌ ... آخَرَ مِثْل أَنْ يَرَى إنْسَانٌ خَطَّ إنْسَانٌ فَيَتَذَكَّرَهُ فَيَحْزَنَ عَلَيهِ إنْ كَانَ مَيِّتاً أَوْ يَتَشَوَّقَ إلَيهِ إنْ كَانَ حَيّاً وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أشْعَارِ الْعَرَبِ كَثِيراً مِثْلُ قَولِ مُتمِّمِ بْنِ نُوَيرَةَ:

وَقَالُوا : أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيتَـهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَينَ اللِّوَى فَالدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ : إنَّ الأسَى يَبْعَثُ الأسَى دَعُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ(٢)

وَقَولِ الْخَنْسَاء تُمَاضِرَ بِنْتِ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ فِي رِثَاءِ أَخِيهَا صَخْرٍ:(٣)

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْراً وَأذْكُرُهُ لِكُلِّ غُـرُوبِ شَمْسِ

---

(١) ديوانه تح سيد حنفي حسنين ط ١ دار المعارف ص ١٠٨.

(٢) القاضي أبو الوليد بن رشد ص ٨٧.
تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي ملتزمة الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية لأصحابها حسن ويوسف محمد وإخوتهما٩ شارع عدل بالقاهرة ١٩٥٣.

(٣) ديوانها ص ٢٧.

لَقَدْ فَارَقْتُ يومَ فِرَاقِ صَخْرٍ أَبِي حَسَّانَ لَذَّاتِي وأُنْسِي
فَلا وَاللهِ مَا أنْسَاكَ حَتَّى أُفَارِقَ مُهْجَتِي ويُشَقَّ رَمْسِي

وَدَخَلَ نُصَيبٌ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَلَمَّا أَنْشَدَهُ الأَبْيَاتَ التَّالِيَةَ، قَالَ: أَنَا كُنْتُ أَوْلَى مِنْكَ بِهَذا القَولِ وهي قَولُه[1]:

عَرَفْتُ وجرَّبْتُ الأُمورَ فَمَا أرَى كَمَاضٍ تَلاهُ الْغَابِرُ الْمُتأخِّرُ
ولكِنَّ أَهْلَ الفَضْلِ مِنْ أهْلِ نِعْمَتِي يَمُرُّونَ أسْلافاً أَمَامِي وَأُغْبَرُ
فإنْ أَبْكِهِ أُعْذَرْ وَإنْ أَغْلِبِ الأسى بِصَبرٍ فَمِثْلِي عِنْدَمَا اشْتَدَّ يَصْبِرُ
وَكَانَتْ رِكَابِي كُلَّمَا جِئْتُ تَنْتَحِي لَدَيْكَ وتُثْنِي بِالرِّضَا حِينَ تَصْدُرُ
فَقَدْ عَرِيَتْ بَعْدَ ابنِ لَيلَى فإنَّمَا ذُرَاهَا لَمَنْ لاقَتْ مِنَ النَّاسِ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا لَمْ يَزَلْ بِدُفُوفِهَا مَنْظَرُ قُرادٌ لِغِرْبَانِ الطَّرِيقِ ومَنْقَرُ
فإنْ كُنَّ قَدْ نِلْنَ ابْنَ لَيلَى فإنَّهُ هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ أهْلِهِ الْمُتَخَيَّرُ

إِذَا تَأَمَّلَتَ هَذَا الرِّثَاءَ، تَجِدُهُ فِي قَالبٍ مُبَاشِرٍ، يَنِمُّ عَنْ وُدٍّ صَادِقٍ، ومَحبَّةٍ خَالِصَةٍ، وأُخُوَّةٍ عَمِيقَةٍ، مِنَ الشَّاعِرِ، لِمولاهُ عَبدِ الْعَزِيزِ، وتلْمَحُ فِيهَا مَوقِعَ الإحْسَانِ مِنْ

عَبدِ العزِيزِ لِنُصَيبٍ، فتَجِدُه وَقَعَ مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي، وخُلاصَةُ الْتَّجرِبَةِ، الَّتي خاضَهَا نُصَيبٌ، وفي عِلْمِهِ كُلُّ مَنْ مَضَى مِنَ الأَخْيَارِ، لا يأْتِي أحَدٌ بَعدَه يُمَاثِلُهُ، في الفَضْلِ، أوْ يُدَانِيهِ، في

(١) داود سلُّوم ص ٨٧
= أسامة بن مُنْقِذ، المنازِلُ والدِّيَارُ تح مصطفي حجازي القاهرة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م ص ٤٣٠.

مُقَدِّمَةِ هؤُلاءِ، عِبدُ العزيزِ بْنُ مَرْوانَ. ونُحْوُ بيتَهِ هَذَا قَولُ أَبي الَّطيِّبُ [1]:

إنِّي لأَعْلَمُ واللَّبِيبُ خَبِيْرُ أَنَّ الْحَياةَ وإنْ حَرَصْتَ غُرُورُ

وَلِذلِكَ يَرَى نُصَيبٌ، أنَّ الْموتَ إنَّما يَنْتَقِي خِيَارَ النَّاسِ، كَعَبْدِ العزِيزِ، وَلمَّا يَلْحَقْ هُوَ بِهِمْ، وَلِذَا جَعَلَ نَفْسَهُ بَينَ خِيارَينِ: إمَّا أنْ يَبْكِي؛ ويُخَفِّفَ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ، فَيَكُونَ لَهُ مِنَ البُكاءِ عزاءٌ وَسَلْوَى، وإمَّا أنْ يَتَجلَّدَ ويَخْتَارَ جَانِبَ الصَّبْرِ، في مِثْلِ هَذِه الْمَصَائِبِ الْعِظَامِ، بَلْ هُوَ بَيْنَ هَاتَّينِ الحَالْين، ثُمَّ يَذْكُرُ مآثِرَهُ، الَّتِي لا تُعَدُّ، ولا تُحَدُّ، وأنَّهُ كُلَّمَا حَلَّ عَلَيهِ بِرِكابِهِ، أخَذَتِ الَمطِيُّ ناحِيَتَهُ، الَّتِي تَعَوَّدَتْ مِنْهَا المَحَامِلَ، والمِيرَة، والأَمْوَالَ، فَصَارَتْ لَهَا عَادَةً مَعْلُومَةً، مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ، فإذَا ظَفِرَتْ بِعَادَتِهَا، وَلَّتْ مُزجِيَةً ثناءَها عَلَيكَ مَسِيرَهَا، وَلكِنَّهَا عَرِيَتْ بِفَقْدِكَ، وَلا يَصْلُحُ الْجُودُ بِغَيْرِكَ، فَلَمْ تَجِدْ مَنْ يستَحِقُّ أَنْ تُشَدَّ عَلَيهَا أَرْحُلُهَا لَهُ بَعْدَكَ، فَصَارَتْ مِثْلَ المَنَاظِرِ، وَلَو كَانَ عَبدُ العزِيزِ حَيَّاً، لَكَانَتْ فِي حَرَكَةٍ دَؤُوبٍ، ذَهَاباً إلَيهِ، وإيَاباً مِنْهُ، وَمَا ذَلِكَ إلا لأَنَّهُ المُصْطَفَى مِنْ دُونِ النَّاسِ، المُخْتارُ مِنْ أَهْلِهِ الخِيَارِ.

فَمِنْ لَبَاقَةِ نُصَيْبٍ، وفِطْنَتِهِ، وحُسْنِ عَقْلِهِ تَخَيُّرُهُ عَبدَ العزِيزِ بْن مَرْوانَ دُونَ بَقِيَّةِ إخَوَتِهِ، وَأَهْلِهِ، فَلَمْ يَخِبْ فِيْهِ ظَنُّهُ، إذْ أعتَقَهُ، وأعْتَقَ أُمَّهُ، وأُخْتَهُ أُمَامَةَ، وأَهْلَ بَيتِهِ، وأغْنَاهُ، ويَسَّرَ لَهُ المَدَاخِلَ لِبَنِي أُمَيَّةَ،

(١) ديوانه ص ٤٨.

وَمُلُوكِهَا، وَلَولا ذَلِكَ لَمَا كَانَ لِنُصَيبٍ أَنْ يَبْلُغَ هَذا المبْلَغَ العَظِيْمَ. لِذَا لاْ يَسْتَطِيعُ نُصَيبٌ نِسْيانَ هَذَا القَرْحِ الَّذِي أدْمَى كَبِدَهُ بِوَفَاةِ عَبْدِ العزِيزِ، وَمَا زَالَ لَهُ وَفِيَّاً، حَتَّى بِعْدَ وَفَاةِ ابْنهِ عُمَرَ، بِعِشْرِينَ سَنَةً بَعْدَهُ، فَرَثَاهُ وَرَثى ابْنَهُ مَعَهُ بِقَولِهِ(١):

بَكَــيتُ ابْنَ ليلَى وابْــنَهُ وَرَأيتُنِي ... أحَـقَّ الأُلى كَـانُوْا مَعِي بِبُكَــاهُمَا
هُمَا حَذيَانِي الْخَيرَ حَتَّى تَشَعَّبَتْ ... غُصُونِي بِنَبْتٍ نَاضِرٍ فِي ثَرَاهُمَا
وكُنْــتُ أَرَى أَنِّي إذَا أُبْــتُ ليلَةً ... مِنَ الدَّهْــرِ قَدْ أيقَنتُ ألاَّ أَرَاهُمَــا
سَأقْضِي فَلَمْ أَفْعَلْ وَلَكِنْ مَنِيَّتِي ... تَرَاخى إِنَاهَــا بَعْــدَ حِــينٍ إِنَاهُمَــا

كَانَ أثرُ وَفَاةِ عَبدِ العزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ، عَلَى نُصَيبٍ عميقاً جِدَّاً فَبَكَاهُ أكثرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامَاً، وَبَكَى ابْنَهُ مَعَهُ، وَكَانَ يَرَى أَنَّهُ أَحَقُّ النَّاسِ بِبُكَاهُمَا، إِذْ شَبَّ وَتَرَعْرَعَ فِي نَعِيْمِهِما واخْضَرَّتْ غُصُونُهُ وَأَينَعَتْ ثِمَارُهُ، وآتَتْ أُكُلَهَا، فِي ثَرَاهُمَا، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ سَيَمُوتُ إِنْ فَقَدَهُمَا مِنْ هَوْلِ الخَطْبِ الْمُلِمِّ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، لأَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ بِيَدِهِ، فَقَدْ تَأَخَّرَ حِينُ مَنِيَّتِهِ عَنْ حِينِ مَنِيَّتِهِمَا.

(١) داود سلُّوم ص ١٣٩.

نتائج الدراسة:

ومن خلال عرضنا لحياة نُصيب ، وتتبُعنا لها في بواطن شعره ، قبل العِتْق وبعده ، تبيّن لنا أنّ هناك أثراً كبيراً للتحرّر من العبودية في حياته ، وفي شعره ، ويتمثّل هذا في النقاط التالية :

١/ إبرازُ عُلُوّ الْهِمَّةِ في الشاعر وَزِيَادَةُ الثِّقَةِ بِنفْسِه مِمَّا جَعَلَهُ يَسْتَطِيعُ منازلة كِبَارِ شُعَرَاءِ عَصْرِهِ فِي البَلاطِ الأُمَوِيِّ، مِثْلَ الْفَرَزْدَقِ وَأَيمَنَ بْنِ خُرَيمٍ.

٢/ السعْي بالشعر لِيَكُونَ سَبَبَاً فِي عِتْقِه ، وَقَدْ زَادَ مِنْ قِيمَتِهِ أَنَّهُ شَاعِرٌ عَالِمٌ بِالشِّعْرِ وَعِلَلِهِ.

٣/ اعتناء الشاعر بِالبُحُورِ الفَخْمَةِ وَالطَّوِيلَةِ ونظمه عَلَيهَا كَثِيرَاً مِنْ قَصَائِدِهِ لِتَتَنَاسَبَ مَعَ أَغْرَاضِهَا كَالْمَدْحِ وَنَحْوِهِ.

٤/ استحسانه لمَوَاطِن البُحُورِ الْخَفِيفَةِ وَالسَّهْلَةِ لِيُنْزِلَ فيها من الشعر ما يناسب المقالُ فيها المقام.

٥/ تَكشُّف قيمة الحرية لنصيب مما جعله يتكسب بِشِعْرِهِ لعتق جَمِيع أَقَارِبِهِ.

٦/ تجلي عنصر الوفاء في شعر الشاعر لِمَنْ أَعْتَقَهُ طِيلَةَ حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ.

المصادر والمراجع:

١- الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري تح السيد أحمد صقر ط ٤ دار المعارف ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م

٢- الأحوص الأنصاري شعر الأحوص الأنصاري جمعه وحققه عادل سليمان جمال قدم له شوقي ضيف الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٢ ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

٣- الأصفهاني الأغاني أشرف على مراجعته وطبعه العلامة الشيخ عبد الله العلايلي، موسي سليمان، أحمد أبو سعد الناشر دار الثقافة بيروت ط٣ ١٣٨١هـ _ ١٩٦٢م

٤- الأعشى الكبير ميمون بن قيس ديوانه دار صادر بيروت

٥- الأنباري محمد بن القاسم كتاب الأضداد تح محمد أبو الفضل إبراهيم ط المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

٦- البَكْرِيُّ أَبُو عُبَيْدٍ الأَوْنِيُّ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ : سِمَطُ اللآلِيءِ نسخَهُ وَصَحَّحَهُ وَحَقَّقَ مَا فِيْهِ عَبْدُ الْعَزِيْزِ الْمَيْمَنِيُّ ط دَارِ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ

٧- الأيوبي ياسين معجم الشعراء في لسان العرب ط٢ ١٩٨٧

٨- أَبُو تَمَّامٍ: الحَمَاسَةُ الصُّغْرَى (الْوَحْشِيَّاتُ) عَلَّقَ عَلَّيْهِ وَحَقَّقَهُ عَبْدُ الْعَزِيْزِ الْمَيْمَنِيُّ الرَاجَكُوتِيُّ وَزَادَ فِي حَوَاشِيْهِ مَحْمُودُ مُحَمَّد شَاكِر ط٣ دَارِ الْمَعَارِفِ

٩- أَبُو تَمَّامٍ: ديوانه شرح وتعليق شاهين عطية مراجعة الأب بولس الموصلي ط١ ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني

١٠- الجاحظ البيان والتبيين تح عبد السلام محمد هارون ط٢ الناشر مكتبة التأليف والترجمة والنشر

١١- الجاحظ: البخلاء ضبطه وصححه أحمد العوامري بك علي الجارم بك – منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان

١٢- الجاحظ: كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان تح وشرح عبد السلام محمد هارون ط دار الجيل بيروت ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م

١٣- الجرجاني: عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر

١٤- الجمحي محمد بن سلام _ طبقات فحول الشعراء ط دار المدني بجدة

١٥- ابن جني أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص ط المكتبة العلمية ١٣٧١هـ _ ١٩٥٢م.

١٦- المُبهِج في تفسير أسماء ديوان الحماسة ط دار الآفاق العربية القاهرة ١٤٢٠هـ-٢٠٠م.
١٧- حسان بن ثابت الأنصاري ديوانه تح سيد حنفي حسنين ط١ دار المعارف
١٨- الخضري بك: محمد الخضري بك تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة الأموية طبعة جديدة ومنقحة تقديم ومراجعة أحمد حطيط ط دار الفكر اللبناني بيروت
١٩- ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تح إحسان عباس ط دار صادر
٢٠- الخوارزمي القاسم بن الحسين _ شرح المفصل في صنعة الأعراب الموسوم بالتخمير شرح عبد الرحمن سليمان العثيمين ط دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م
٢١- داوود سلوم شعر نصيب بن رباح مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٧م
٢٢- ابن دريد تعليق من أمالي بن دريد تح السيد مصطفي السنوسي ط ١ قسم التراث العربي – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م
٢٣- الدماميني بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر العيون الغامزة على خبايا الرامزة تح الحساني حسن عبد الله

الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ط٢ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٢٤- الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود: الأخبار الطوال قدم له ووثق نصوصه ووضع حواشيه عصام محمد الحاج علي منشورات محمد علي بيضون ط دار الكتب العلمية بيروت

٢٥- الذهبي _ سير أعلام النبلاء شرح شعيب الأرنؤوط ط ٧ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٠هـ _ ١٩٩٠م

٢٦- ذو الرمة غيلان بن عقبة ديوانه قدم له وشرحه أحمد حسن بسج ط١ ١٤١٥هـ _ ١٩٩٥ دار الكتب العلمية

٢٧- ابن رشد تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر - تأليف القاضي أبي الوليد

٢٨- الزجاج أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية ط دار الكتاب العربي بيروت لبنان

٢٩- الزركلي _ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ط ١٤ دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٩٩

٣٠- زهير بن أبى سلمى ديوانه ط دار صادر.

٣١- السيوطي: تاريخ الخلفاء ط دار المنار ٩ شارع الباب الأخضر ميدان الحسين
٣٢- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة وضع حواشيه خليل المنصور منشورات محمد علي بيضون ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٨هـ - ١٩٩٧
٣٣- ابن عبد ربه العقد الفريد منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت ط ٢ ١٩٩٠م
٣٤- ابن العبريِّ: تاريخ مختصر الدول ط المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان ١٩٥٨م
٣٥- عنترة بن شداد ديوانه ط٣ دار صادر بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م
٣٦- الفرزدق همام بن غالب ديوانه تح كرم البستاني ط دار صادر للطباعة والنشر بيروت.
٣٧- ابن قتيبة: الشعر والشعراء تح وشرح أحمد محمد شاكر ط دار المعارف شعبان ١٣٧٧هـ - فبراير ١٩٨٥م.
٣٨- عيون الأخبار نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
٣٩- الكتبي محمد بن شاكر الكتبي - فوات الوفيات والذيل عليها تح إحسان عباس ط دار الثقافة بيروت
٤٠- المتنبي أبو الطيب أحمد بن الحسين ديوانه ط٣ دار صادر بيروت ١٤٢٤هـ _ ٢٠٠٣م

٤١- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي مروج الذهب ومعادن الجوهر ط دار الأندلس بيروت

٤٢- ابن منظور _ لسان العرب نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري ط دار إحياء التراث العربي بيروت لينان ١٤٠٨هـ _ ١٩٨٨م

٤٣- ابن منقذ أسامه بن منقذ المنازل والديار تح مصطفى حجازي ط القاهرة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م

٤٤- اليعقوبي أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح: تاريخ اليعقوبي علق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور منشورات محمد علي بيضون ط دار الكتب العلمية بيروت